رواية | الثالث

جائزة الشارقة للإبداع العربي | الإصدار الأول | الدورة 25 | 2021

سِفرُ الغُراب

أيمن بيك

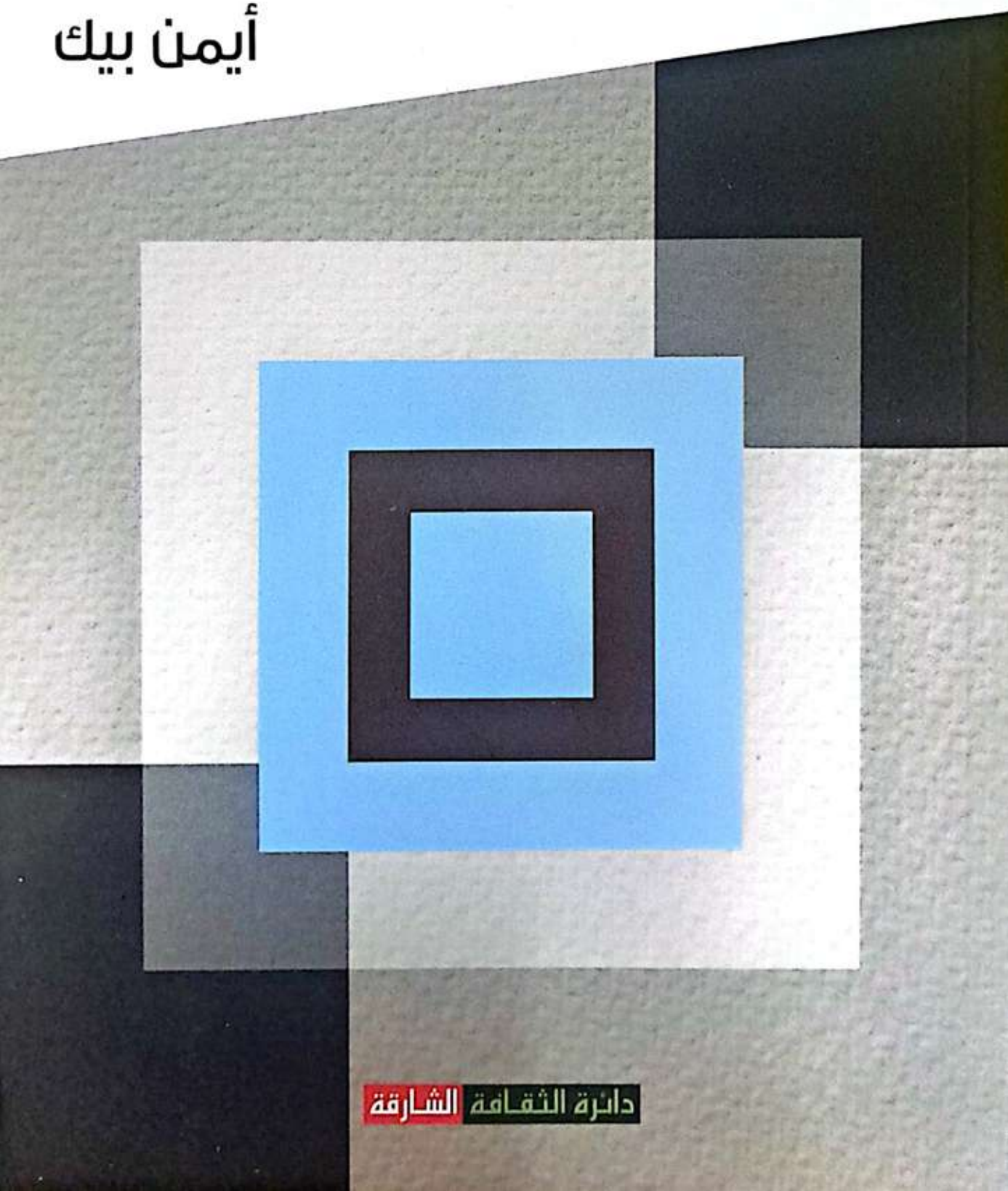

دائرة الثقافة الشارقة

سِفرُ الغُراب

رواية

أيمن بيك

سِفرُ الغُراب

رواية

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2022م

الناشر: دائرة الثقافة - حكومة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
الهاتف: 5123333 6 971+
البرّاق: 5123303 6 971+
الموقع الإليكتروني: www.sdc.gov.ae
البريد الإليكتروني: sdc@sdc.gov.ae

© حقوق النشر والطبع محفوظة
الطبعة الأولى 2022

تصميم الغلاف: ضياء الدين الدوش

813.03
ب ا . س بيك، أيمن
سفر الغراب / أيمن بيك.- الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : دائرة الثقافة، 2022.
168ص ؛21 x 14سم.
الفائز بالمركز الثالث في مجال الرواية بجائزة الشارقة للإبداع العربي، الإصدار الأول، 2021-2022.
ا. القصص العربية -السودان- دواوين وقصائد
أ. العنوان
ب. جائزة الشارقة للإبداع العربي (25 : 2021)

ISBN: 978-9948-826-50-7

ملابس القتلة مهما غُسلت،
فدمُ الضحايا فيها بائن،
ما دامت ذاكرتنا متقدة.

الإهداء

إلى

هالةِ الحب التي جعلت لكلماتي معنىً.

إلى

شهداء ثورة ديسمبر المجيدة ومفقوديها..

في القلب دموع لم تُكتب بعد.

حطّ الطائرُ الغريب على حديدة بارزة أعلى النَّفق، كان في حجم القطة أو أكبر قليلاً، ريشه رمادي كثيف وله منقار حادّ طويل، يوزع نظراته الفاحصة حوله بسرعةٍ فائقة.

نظر إلى المباني القريبة والشّوارع والسّيارات العابرة، نظر إلى المارة والباعة المتجولين، نظر أيضاً إلى العسكريِّ الواقفِ أمامَ البوابة، الحاملِ بندقيته على كتفه، الناظرِ أمامه في صرامة، ثُم رفّ جناحاه على حين غرة؛ فانتشر منهما غبارٌ بُنّيٌّ غامق، سَرعان ما عمّ الأرجاء، وكان كلما ابتعدَ عن جسد الطائر؛ ازدادَ كثافةً ومتانة، مانعاً الرؤية البعيدة وحاجباً الضوءَ.

خلال لحظات كان المكان حول النّفق قد اصطبغ باللون البُنّيّ الغامق. ابتلع ذلك الغبار الغريب كلَّ ما حوله من مبانٍ وسيارات وشوارع ومارة، بل صار جزءاً منها وصارت جزءاً منه.

كنت أقف أمامَ الطائر مباشرة، بأقدام تكاد تلامسُ قضبان السّكة الحديديّة التي تمرّ فوق النفق، نظراته الحادّة تخترق الغبار لتصطدم بعيني، يداي ترتعشان وقلبي ينبض بقوة، حبات العرق المُرّة تنزلق عبر جبهتي، تحفر مساراً مستقيماً يستقر داخل عيني فيتعكر صفوها، لا أدري منذ متى أقف أمامه، وما الذي أتى بي إلى هناك، ولماذا أقف أمامَ طائر بشع ومخيف ولا أهرول بعيداً.

نظرتُ حولي مجدداً بلا أملٍ في اتضاح الرؤية، الغبار بدأ يجتاحُ رئتي، أستنشقُ رائحتها المُرّة في كل خلية داخل صدري، سمعتُ سعال المارة وتساؤلاتهم المحتارة، وأبواق سياراتهم الفزعة، شعرتُ بالشفقة عليهم، وفي ذات الوقت اطمأن قلبي قليلاً إلى فكرةِ أن هناك من يمكنني مناداته لنجدتي.

هممت بالصُراخ لعل أحداً ما ينجدني، لكني في ذات اللحظة، أحسستُ بجسم غريب يتكوّن في يدي، وزنه لا يقل عن كيلوجرام كامل، ذُعرت؛ فنظرت إلى يدي، وجدتها تحمل قطعة حجر كبيرة مصقولة الحافَات، سوداء؛ يلمع سوادها على وقع ضوء لا أعلم مصدره، يجهر عيني رغم الغبار.

سَرَتِ القُشَعْريرة الباردة في جسدي، فتيقنت أنَّ عليّ القيامَ بخطوةٍ ما، وما هذا الحجر إلا إشارة إلى ذلك، رفعت الحجر عالياً ثم قَذَفْت به الطائرَ، لكن الحجر نفذه من دون أن يصيبه بأذًى، في تلك اللحظة اجتاحني إحساس بأنَّ جوفي ينشق، وألمٌ فظيع يملأ قلبي.

يئست أن أهزمَ الطائر، سمعت صوتَ تصادم سيارتين، ورجل صفعه بابُ سيارة مفتوحٌ في وجهه أو بطنه فصرخ؛ آخر سقطَ على الأرض، ربما تدوسه سيارة أجرة تسير بلا هدى.

عضضت على أسناني فأحسست بعروق جبهتي الغاضبة والمفزوعة تبرز نحو الأمام؛ عندها عاد الثقل إلى يدي من جديد، رفعتُ الحجر المصقولَ اللامع لأضربَ الطائر مجدداً، لكني تراجعت، سينفذه الحجرُ مرّة أخرى لا شكَّ في ذلك.

أرخيت يدي ثم دنوتُ أتحسس قضيبَ السّكة الحديدية تحتي، وبلا أيّ

إرادة مني، رحت أطرقُ الحديد، محدثاً صوتاً مزعجاً ومنتظماً، نظرت بعد ذلك إلى الطائر فوجدته يتململُ في مكانه فانتابني شعورٌ بالفوز.

في البدءِ، كنت أسمع صوتَ طرقاتي فقط، لكن بعد لحظات قليلة ازدادت أصوات الطرق وتضاعفت، وباتت تأتيني من جميع الجهات، أيادٍ كثيرة وقريبة أصبحت تفعل ما أفعل.ومع أنّ الإزعاج بائن؛ فإنها بعثت في قلبي برودةً لذيذةً، زاد تململ الطائر وانكمش على نفسه ثم احترقَ كطائر العنقاء، وهو لا يشبه طائرَ العنقاء بريشه الملوَّن وذيله الطويل، ولم ينهض من رماده بعد أن احترق.

وقفتُ الطَّرْقَ، نظرت إلى الغبار البُني الخانق على أمل أن يبدأ الانحسار، لكنه لم يختفِ بل ازداد قتامة حتى تحول إلى سواد تام، وحل ظلامٌ مخيف.

خيبات صغيرة

حاتم، الطفل الصغير، ببنطاله القصير المترب، وقميصه الذي لا يخلعه أبداً، تتجاسر خصلات شعره لإخفاء وجهه، لكنه يدفعها نحو الخلف بقوة، ثم ينطلق برعونة كصاروخ صغير خلف الكرة، وعندما تقف عند قدميه ينحني ليحملها بيديه، فقط ليثير غضب البقية.

يا له من طفل مشاغب، لم يكن يشبه أطفال الحي في شيء، حتى إنه لم يكن يجيد لعب الكرة مثلهم، يجهل أبسط أبجدياتها التي يتعلمها بعضُهم بالفطرة، وإن حق لي القول فهو لا يريد أن يجيدها، يجهلها عمداً، يستلذ بذلك الجهل الذي يجلب له المصائب، فهو بارع في كل شيء عدا الكرة، يستطيع مثلاً أن يحمل طفلاً في حجمه حتى مستوى رأسه، ثم يلقي به نحو الأرض، لكني لم أره من قبل يضرب أحداً.

جسده القوي حصل عليه بحملِ أكياس الدقيق من طاحونة والدة وإيصالها إلى سياراتِ الزُّبُن، مقابلَ إكرامية صغيرة يكفي مجموعها شراء ربع كيلو حلويات من متجر أبو النور مساءً.

غير أنه لم يكن يعشق ذلك العمل، إنما يجاري رغبات والده التي لا تنتهي، ومن بينها أن يخلفه في العمل على الطاحونة، وكلما أحس

به يتذمر يحكي له تاريخ طاحونته التي ورثها عن جده مباشرة، مطالباً إياه باحترام مهنة الآباء، ولم يكن والد حاتم يمل من مجادلة كل من يخالفه في هذا الرأي، خاصة أولئك المتفذلكين الذين يتحدثون دائماً عن المهن التقليدية وذهابها إلى الجحيم.

العجيب أنّ معرفة حاتم بأنواع الدقيق وتسمياته في مراحلِه المختلِفة؛ منذ حصاده حتى طحنه وعجنه وتحويله إلى طعام صالح للأكل؛ كانت أعمق وأكبرَ من معرفته قوانينَ الكرة رغم حبه الجارف لمشاهدتها.. الأمر يؤرقني كثيراً، فهو لا يعرف مشاهير اللاعبين لأنه ببساطة ينسى أسماءَهم كلما ذَكَّرْتُه بهم؛ ونحن عائدان من نادي المشاهدة كل يوم خميس، بعد أن نجمع ثمن التذكرة من بواقي مراسيل الدكان، ثم نتسلل مساءً خفية من البيت، لنشاهد المباريات.

كأنّ بين ذاكرتِه والكرة ثأراً قديماً، يناوشها كلما نطقت أمامه اسماً أو استعرضت قانوناً ما، وربما يفعل ذلك فقط ليغيظني، فلم يكن ينقصه الذكاء إطلاقاً.

يصر أن نخرج يوميّاً إلى الملعب، يطلب الأمر بإلحاحٍ ممل، يطرق باب بيتي يوميّاً بعد العصر عندما تفتر عزيمة الشمس، تستقبله أمي كالعادة لأن مطبخها الصغير مقابلٌ لباب البيت فتصبح أسرعَ وصولاً، تحمل الكمشة في يدها وتفوح منها روائح الطعام.

تفتح الباب الخشبي ثم تتأفف عندما تراه أمامها، يعيد إلى مسمعها ذات السّؤال اليوميّ المعتاد عني؛ هل أنا موجود أم غيرَ موجودٍ.. لكنها لا تجيبه، تكتفي فقط بالصّراخ مناديةً باسمي ثم تنسحب عائدة إلى مطبخها، فأهب مسرعاً لأسمع من فمه ذات السّؤال المكرر أيضاً:

- هل ترغب في الذهاب إلى الملعب؟

ومع كرهي لذلك الروتين المؤلم الذي وضعني فيه؛ أومئ مجيباً، لأنه لم يكن لينتظر جواباً غيرَ ذلك، وأيضاً لرغبتي في صحبته فقط.

إنَّه الشخصُ الوحيد في هذا العالم، الذي يزيل عن كاهلي ثقلَ الأيام، خاصة أيام الإجازة، فاليومُ طويل ولا يوجد ما يمكن لطفل في التاسعة أن يتسلى به، برامج الأطفال التي يبثها تلفزيون السّودان على قلتها؛ مملةٌ ومكررة، كأن مكتبة التلفزيون قد اشتعلت فيها النار عندما وُلدنا، ويرفض والدي في فزع أن يشتري لنا (الدّش)، يتحدث دائماً عن منعه ما لم تتم مصادقته من جهاز الأمن، وهذا أمر مستحيل لأسرة في مثل حالنا، لا تملك مالاً أو نفوذاً.

يصيبني ذلكَ بما يمكن أن أسميه «اكتئاب الإجازة» ويجعلني راغباً في العودة إلى المدرسة، فعلى الأقل، ستسليني حصةُ الفنون قليلاً، والنشاط الثقافي كلَّ يوم سبت، فأنا عضو نشِطٌ في الفرقة الموسيقيَّة، والتي تعزف جميعها على آلة عود واحدة قديمة مع الأستاذ الأصلع صاحب النظارات.

رغبتي في مرافقته إلى الملعب عرضتني للكثير من الضرب، عندما أتحسس جسدي الآن أجده ملآنَ بالكدمات، لكل واحدة منها حكاية يمكن أن تُحكى منفردة، لكن كل تلك الحكايات كانت تبدأ وتنتهي في ميدان اللعب، وبالطبع فإن آثارها النفسية لا تدوم أكثر من ضحكاتنا الساخرة، فما إن ننتهي من الضحك ونحن نجري بعيداً، حتى يزول ألم الجسد والنفس.

كنا نتلقى الضربات المباشرة على الوجهِ والجسم، بعدَ كل مباراة نخسرها، نحاول الدفاعَ قليلاً عن أنفسنا، لكن بلا فائدة، يتكالب علينا الجميع في فرح، فهذا الطقس المرحُ يكاد يتكررُ يوميّاً ليصبح فعلاً أكثرَ ترفيهاً لدى أولئك الأطفال، ولا نجد ملاذاً سوى الفرار، وهنا تلاحقنا الحجارة حتى نصل إلى البيت.

ندخل بيتنا أو بيتهم ثمّ ننفجر ضاحِكَيْن مجدداً، وهذه المرة نضحك حتى نكاد نستفرغ بقايا طعام الغداء، كأن ما عانيناه لم يكن سوى دغدغة شديدة.

كثيراً ما صمتُّ أتأمله وهو يضحك، تبدو ضحكاته النابعة من القلب مثيرةً للتعجب والإعجاب، إنه لا يحبُّ الكرةَ في ذاتها، لكنه يحبُّ ذلك الجوَّ الحماسي الذي تخلقه الهزيمة والركض الذي يعقبها، لذلك لم تكن عزيمتُه لتلين، بداخله حبٌّ عظيم للمغامرة، حبٌّ يجعله في بعض الأيام يجرني من سريري ممسكاً ياقةَ قميصي، لنخرج إلى الملعب منذ الظهيرة، وننتظر حتى تبرد الشَّمس وتبدأ رحلتها نحو خط الأفق إيذاناً باقتراب موعد اللعب.

يأتي بقية الصّبية؛ فيجدونا قد سبقناهم في الحضور، يتهامسون ضاحِكين؛ فأحس ببعض الضّيق، لكن عندما أنظر إلى حاتم أجده يبتسمُ في وجوههم بكلّ خبثٍ فأبتسم معه، حينها، ينزعجون ويتوعدوننا بالضّربِ والتّنكيل أكثر من المرّات السّابقة؛ يجيبهم بزيادة مِساحة الابتسامة على وجهه فقط، لتبدو تعابيره أكثر برودا وسخريّة، غير آبه لأي تهديد، وعلى ذلك؛ نُفِينَا من الملعب نهائياً بلا عودةٍ. توقعت ألّا يستجيب لكنه وافقَ بلا أي اعتراضات، وودعهم ملتفتاً نحو الأمام بسرعة كأنّه دفنهم في الأرض إلى الأبد.

اضطررنا لاحقاً إلى هجرة شاقَّة حتى نحصل على رفقاء جدد، اكتشفنا بأننا غير قادرين على المواصلة دون لعب الكرة، ودون أن نشعل بشقاوتنا حريق الحنق داخل قلوب الأطفال الآخرين، عبرنا الطريقَ الموحشة عبر زرائب الطلح المشيّدة عشوائيّاً داخلَ مجرى السّيل العريض، قابلنا هناك أصنافاً شتى من الحيوانات؛ كلاباً وبقراً وغنماً وأسداً أيضاً حسبَ زعم حاتم.

قابلنا أيضاً إبراهيم المجنون ببذلته العسكريَّة القديمة المتسخة، وطوله الفارع المخيف، ما إن يرانا كل مرة حتى يجري خلفنا حاملاً طوبةً في يده وهو يصرخ: «سأفجركم جميعاً!»..

في بادئ الأمر، كنا نجري منه في ذعرٍ؛ في ذهابنا وإيابنا نتسابق في الهرب منه، ورغم الخوف الذي يزرعه في قلوبنا إلا أننا لم نفكر يوماً في العدول عن المرور بطريق الزرائب، ولاحقاً نشأت بيننا وبينه عَلاقةُ صداقة، وصار حاتم يقتسم معه بعضَ الحلوى فيرحل مبتسماً وهو يتمتم بكلام لا نفهمه على الإطلاق؛ أشبه بالشعر.

كنا طوال الوقت نرى إبراهيم رجلاً مضحكاً ومخيفاً، يستوي وجوده مع عدمه، ونتساءل عن جدوى وجوده في الحياة، وكنت أخمن أنه لم يُوجد في هذه الدنيا إلا لنضحك عليه.

لكن ما سمعناه من أبي ذات يوم -حينما كان يحدث والد حاتم في أمور الحياة وجاءت عرضاً سيرة إبراهيم- جعلنا نغير نظرتنا نحوه، لقد أصبحت كلها شفقة وحزن، لقد كان مجاهداً في حربِ الجنوب، جنّدوه إجباريّاً في نهاية التّسعينيات وأرسلوه إلى مناطقِ العمليات، لم تكن مهمته بتلك الصعوبة، فقد أوكلت إليه مع مجموعة من الجنود؛

مهمة حراسة بعض المنشآت، لم يكن ذلك العمل مخيفاً، قضى أيامه المطلوبة على قدر من المسئولية رغم كرهه لما يفعل، ونشأت بينه وبين رفقائه علاقة صداقة قوية، امتدت حتى يومهم الأخير في الخدمة، وفي أثناء عودتهم داخل حاملة الجنود إلى الخرطوم، أصابتهم قذيفة فتكت بالجميع إلا هو، فإنّ إصابته كانت خفيفة.

رأى إبراهيمُ أصدقاءَه يسبحون في دمائهم حوله؛ صرخ من دون توقف، أخرج قنبلةً من جيب حقيبته وراحَ يجري في المكان باحثاً عن عدوٍّ ليقتله.

تحوَّل وجوده بين الزرائب من رعب إلى صداقة، وذلك منحنا فرصة في العودة إلى البيت متأخِرَيْن، كان المكان بوجوده أكثرَ أماناً ومرحاً.

تكوين الصداقات الجديدة لم يكن أمراً سهلاً، فالمستوى الذي ظللنا نقدمه في لعب الكرة لم يكن مقنعاً، ولم يدفع أيٌّ من الصّبية البرجوازيين في حي الواحة إلى طلب وُدِّنا؛ فظللنا مُنعَزِلَيْن لا نجلس معهم إلا منزوِيَيْن، نستمع فقط من دون أن ننبس بكلمة.

تطرب آذاننا حكاياتُهم العجيبة عن أفلام الكرتون، وأفلام الكبار التي يظهر فيها رجلٌ وامرأة يتبادلان القُبل، ثم يستلقيان على الشّاطئ لتضرب جسديهما أشعةُ الشّمس الذهبيّة.

كان الأمر صادماً بالنسبة إلينا، تجرأت مرّةً أن أفتحَ فمي بسؤال جعلهم ينظرون نحوي في ذهول، قلتُ:

- أين تشاهدون هذه الأشياء؟

ردّ أحدُهم ضاحكاً وساخراً:

- أليس لديكم دش؟

نعود إلى البيتِ بعدَ المغيب مباشَرة، نعود وقد خارت قوانا تماماً، وابتلت ملابسنا بالعرق وتحول غبارُ المباراة إلى طينٍ لزج.

نستحمٍ بسرعة بعدَ أن تنخر آذاننا صرخاتُ التَوبيخ المعتادة، ثم يصعد كلٌ منا إلى سطحِ منزله، نتقابل في الأعلى لا تفصل بيننا سوى هاوية بسيطة لا تزيد على المترين؛ وذلك لأنّ البيتين كانا بيتاً واحداً من قبلُ؛ فَصلَه صاحبُه إلى قسمين طمعاً في المزيد من مال الإيجار.

كثيراً ما يتقابل والدانا، ليتحدثا عن كون البيت بهذه الطريقة ليس شرعيّاً، إذ إنّنا نتقاسم الشبابيك أيضاً، ويستطيع أيُّ شخص طويل السّاقين أن يقفزَ من سطح إلى آخرَ، ذلك الأمرُ كان يقلق والد حاتم أكثر من والدي؛ لأنّه متدين.

لكن بالنسبة إلينا -نحن الصغار- فهذه فرصةٌ للمزيد من التّواصل، نلتقي في السّطح أو أمامَ أحد الشبابيك، إنه لَأمرٌ رائع لولا تعنت الأهل وإصرارهم على فصل البيتين تماماً، وتأكيدهم عدم فتح أيّ شباك، أو الصعود إلى السّطح لغير الضرورة، وتشديد تلك الأوامر.

ما لا يعلمونه حقّاً أنّ هذا القربَ بين البيتين؛ جعل علاقتي بحاتم أقربَ ما تكون إلى عَلاقة الأُخُوَّة، نعتبر أننا نعيش في بيت واحد، جيبنا واحد ومائدتنا واحدة، كلّ شيء نقتسمه معاً، حتى أننا نتشارك ذات القلب، غير أنّ المرّة الوحيدة التي لم أومن فيها بذلك، كانت عندما تلقى حاتم علقة ساخنة من والده، حين نام في بيتنا بعدَ الإفطار، أمسكه من أذنه وقال له:

- أليس لديك بيتٌ لتنام فيه، يا قليلَ الأدب؟!

أحسستُ بخيبة أمل كبيرة يومها؛ إذ لا شيءَ يضر إن نامَ حاتم في بيتنا، كما قالتْ أمي لوالد حاتم غاضبة وهي تبعده عنه:

- بيتنا وبيتكم واحدٌ.

لكن لاحقاً، نام حاتم في بيتنا أيضاً بعد الإفطار، بل إنّه نام ليلتين لختان أحد أقاربه القادم من القرية، واضطرارهم إلى وضعه في غرفة وحدَه، واستقبال الأقارب في الغرفة الثانية.

استيقظت فَزِعاً وجلست على حافَة السَرير، بلعت ريقي عِدّة مرّات قبلَ أن يهدأ روعي قليلاً.

لم يكن الحلم مخيفاً، لم أشاهد أشخاصاً يطاردونني كما يحدث عادةً، ولم أشاهد كائناً مخيفاً حتى أفزع كلَّ هذا الفزع، ولكنني رأيت حاتم بعد أن كانت ذكراه لا تزورني إلا لماماً، ونحن نلعب معاً كما كنا نفعل أيام طفولتنا، نركل كرةَ البلاستيك إلى الحائط ونضحك، فترتد إلينا وقد أثارت الغبار، لكنني كلما نظرت في وجهه كنت لا أرى ملامحه؛ فتزول الابتسامة عن وجهي مباشرة، ويبدأ قلبي الخفقانَ بسرعة، تكرر ذلك المشهد الغريبُ عِدّة مرات.

حتى وقت قريب، كنت أظنني أتذكره بكلِّ تفاصيله الدّقيقة، لكن هذا الحُلم المباغت وضعني أمامَ حقيقةٍ مفادها أنني نسيت ملامح وجه صديقي.

لم أره منذ سنوات طويلة؛ منذ أن توفي والده واختلف والدي وأمه مع صاحب المنزل، عندما أراد أن يزيدَ قيمة الإيجار فقوبل طلبُه

بالرفض، وإن كنت أرى المشهد ضبابياً الآن، لكن هناك بعض الخطوط الواضحة تظهر أمامي، ترجل صاحب المنزل من سيارته، كان والدي وأم حاتم في انتظاره عند الباب، دار بينهم نقاش طويل وحاد، وكاد يتحول إلى عراك بالأيدي، كنا نسترق النظر من سطوح المنزل.

انسحب الرجل إلى سيارته وهو يتوعد بالذهاب إلى المحكمة؛ فقال والدي صارخاً عليه:

- لم يكن بيتاً شرعيّاً من الأساس!

ومع أنّنا أقمنا في المنزل سنوات طويلة، إلا أن والدي قرر الرحيل فوراً، تاركاً خلفه ذكريات كان الزمن كفيلاً بوضعها في الأرشيف ليغطيها غبار الحنين.

الرحيل قرار مؤلم، يحتاج إلى شجاعة كبيرة، وقليل من الغضب والرعونة، ومقدرة فائقة على تحمل وابل الذكريات، خاصة عندما تتعلق بصديق العمر، والبيت الذي تشكلت فيه روحك، وقتها لم تكن بيدي حيلة، وإلا كنت بقيت هناك حتى لو اضطررت لترك الأكل لدفع الإيجار.

أمّ حاتم قررت الإذعان للأمر، وباعت طاحونةَ زوجها والتزمت دفعَ الإيجار الجديد، عللّت فعلتها تلك بأنها لن تجد بيتاً أرخصَ من هذا، وهو ما حدث بالفعل، فأبِي الذي التزمَ قرارَه لم يجد بيتاً أرخصَ، كلُّ أصحاب البيوت زادوا أسعارَهم بسرعة جنونية، ليتماهوا مع صعود الأسعار المضطرد الذي خلفه ارتفاع العملاتِ الصعبة، والتي أخفقتِ الدولة في السيطرة عليها، واكتفتِ الحكومة فقط بالمراقبة من

بعيد، وكنا نحن الضحايا، إذ إنَّ الإيجار الجديدَ كلفنا وجبة الغداء تَكْلِفَةً شبه دائمة.

وهكذا تحتم علينا الفِرَاق، وقُطِعَّتْ تلك الحبال التي ربطت طفولتنا وكنا نظنها محكمةَ الربط، لكن كلّ شيء انفرط ولم يعد كما كان.

السّنواتُ التي لم أره فيها؛ كانت كفيلةً بمحو ملامحه من ذاكرتي، هذا ما أفزعني حقّاً، أعزّ صديق عرفته في حياتي تطير ملامحه هكذا ببساطة من رأسي؟

بعد الرحيل مباشرة لم أتوقف عن التفكير في حاتم وبيتنا القديم إلا بعد مدة طويلة، فقد أصبحت حياتي في الحي الجديد، تشغلني حتّى عن الإلحاح في طلب زيارة الحيِّ القديم.

وقد ظلَّ أبي مشغولاً بالعمل، كلما حدثته عن الأمر؛ قال:

- سنزور صديقك قريباً

وقريباً هذه امتدت إلى سنوات، بعدها قنعت دون زيارة حاتم، وانغمست في حياتي اليوميَّة متدرجاً بين المدرسة والجامعة والعمل في الصحافة.

وقفت أمامَ المرآة محاولاً عصر ذاكرتي أكثر لكنني لم أنجح حتى في تذكر صوته، العَجيب أنني أتذكر كرةَ البلاستيك تلك التي رأيتها في الحُلُم جيِّداً؛ كرة صفراء ذات خطوط سوداء متعرجة، اشتريناها في أوَّل يوم من العام الدراسيِّ الجديد، لذلك كان لزاماً ألا تظهر إلى العلن، وإلا فإن مصيرَها التمزيقُ بالسّكين.

مع بداية العام الدراسي يصبح كلّ شيءٍ محرماً: الخروجُ أو

اللعب أو حتى التّوقف للحظات لتبادل الحديث، وهذا ما جعلني أكره المدرسة إلى حدّ كبير، مع أنّها كانت مهرباً من البيت وضجرِه، كنت أكره الطريقة التي يعامل بها المعلمون التلاميذَ، الضرب المبرح الذي نُعرَّض له بلا سبب زادَ بغضي للدراسة.

كان حاتم يحرز درجةً عالية في مادّة الدين، علّمه والده المتدين كثيراً من الأمور، أمّا بقية الموادّ فقد كانَ يشاركني ذات السّوء، لم يكن مستوانا ليسمح لنا بممارسة أيّ نشاط غير المذاكرة، فكنا نلعب بكرة البلاستيك تلك خلفَ المسجد، نركل الكرة إلى حائط المسجد فترتد إلينا، حتّى أبلغ إمامُ المسجد والد حاتم فنلنا «عَلْقَةً» ساخنة.

المدهش أنّني أتذكر كلَّ تلك التّفاصيل الدّقيقة، لكني أعجز عن تذكرِ ملامح صديقي.

التّفكير المتواصل في الحُلُم أصابني بالفتور والضجر، قررت أن أعود مجدداً إلى النَّوم، أصبحَ ملاذي الوحيد بعد أنْ طُرِدتُ من العمل.

الحياة العاطلة التي أعيشها الآن أصابت أحلامي ببعض الكوابيس المزعجة، عانيت منها مدَّة طويلة، طاردني أشخاص كثيرون، بعضهم تمكن مني وبعضهم لم يفعل. تحطمت بي سياراتٌ وطائرات وسقطت من على بنايات شاهقة، لكن المحصلة واحدة، وهي أنّني أستيقظ فزِعاً وأحياناً أصرخ كمَن رأى أمامه أَسداً يهمّ بالتهامه.

صرتُ أدافع الكوابيس بحيلة لا تفلح كثيراً، أرقد برأسي على المِخدَّة ثم أغمض عيني متخيلاً نفسي غارقاً بين الوَرق، أكتب في أمرٍ ما؛ لا يهمّ ما هو، لكنه وثيق الصلة بالصحافة، عملي الذي طردت منه، أظل أكتب حتى أغرق في النوم، فيظل ذلك الفعل مرافقاً لي

ومنغمساً داخل الفضاء الأسود، وعندما أستيقظ فإني أكون قد كتبت الكثير من المقالات التي لا أذكرها.

لم أكن أتصور أن يطردوني ذاتَ يوم، فأنا أكتفي فقط بكتابة بعض المقالات الثّقافيّة، رغبةً في الاحتفاظ ببالٍ هادئ، بعيداً عن السّياسة التي لا تأتي إلا بالمصائب.

هذا ما كنت أظنه حتّى كتبت مقالاً عن مصادرةِ الكُتب في المعارض، ظننته شأناً ثقافيّاً بحتاً، كتبته ليلاً وأنا أتصبب عرقاً، ويحدث ذلك عادة عندما يأخذني الحماس في دروبه، أشعر بانتشاء عجيب وتتساقط الكلمات على رأسي كوابل المطر، وخلال الكتابة شربت خمسة أكواب من القهوة.

عندما أرسلت المقال إلى رئيس التّحرير؛ استدعاني في اليوم التالي، وأمرَ لي بكوب قهوة، كان شاربه الكث يرتجف في قلق، ينقر بأصابعه السّمينة على الطاولة فوق الورق.

ظل الرجل صامتاً دقائقَ حتى أكملت قهوتي، بدا لي أنه كان يرتب شيئاً ليقوله، ولمّا وضعت الكوبَ على الطاولة؛ بدأ حديثه فوراً عن حداثة سنّي، أعطاني محاضرة لا بأس بها.

- إن هذه الأمور التي كتبت عنها لا تبدو بالسّهولة التي تتخيلها، فالكتب التي صودرت هذا العام، لم تُصادر لأنها خادشة للحياء كما قيل، بَلْ بسبب توجهات كُتّابها وميولهم السّياسية.

استمر في حديثه ساعةً، وكان حديثه يدور حول نقطة واحدة، الا وهي أن أكونَ أكثر حذراً هذه الأيام، فالسلطةُ أصبحت شرسة

في تعاملها مع المبدعين، خاصَّةً بعدَ ثورة الاتّصالات الأخيرة، التي قربت المسافات وجعلت البساط ممدوداً لكل صاحب موهبة.

أعلم جيداً أن أغلب الفنانين والمثقفين يميلون إلى تبني النّهج المعارض، بل ويمقتون كلَّ مبدع لا يلهج بهجو الحكومة، وساعدت وسائل التَّواصل الاجتماعي في ترسيخ هذه الفكرة، فزاد سعار الحكومة، وراحت تقمع كلَّ مظاهر الثّقافة المعلنة، واستحدثت مثقفين من ورق يمثلونها في المحافل، لكني لم أربط كل ذلك بمسألة مصادرة الكتب، فمن بين الكتب المصادرة كانت هناك كتب لمثقفين يطبلون للنظام على الدوام، هل هم كباش للتمويه فقط؟

في النهاية، اتكأ رئيس التّحرير بظهره على كرسيه وزفر هواءً ساخناً، كأنما أزال للتوّ عن صدره صخرةً كبيرة وقال:

- اكتب مقالاً آخرَ وسننشره فوراً

أنا أعرفه منذ مدّة طويلة، قرأ لي عدّة مقالات في الفيس بوك، واستقطبني مقابلَ مبلغٍ زهيد، ووافقت على الفور، ففرص العمل هذه عجيبة؛ يقال إنها تفتح أفقاً أرحب، ويمكن لمن ينغمس في عالم الصحافة أن يدرك مدى هذه المقولة، وكونها كذبة كبيرة.

الوظيفة التي حصلت عليها جعلتني أغض الطرف عمّا يشاع عنه؛ كونه جبان إلى أبعد حدٍّ ومتلوّن، يكتسب لونه حسب المستمع الذي يجلس أمامَه، أحياناً تظنه ملاكاً عظيماً وأحياناً أخرى تجزم بأنه شيطان هارب من جهنمَ، وفي مقالاته التي تحتل حيزاً كبيراً في الصفحة الأخيرة، لا يكتفي فقط بتملق الحكومة بطرق غير مباشرة، بل يصر على تجريم معارضيها أيضاً؛ وبصورة مفضوحة.

بذلك التّلون؛ يسيطر على سوق الصُحف على أيّ حال، أحياناً تنتشر نسخ الطبعة الواحدة من الصحيفة حتى حدود البلاد الملتهبة.

لم آخذ مرافعته تلك على محمل الجد، ولم أستنتج سوى أنه يخشى على اللّقمة التي تدخل فمه بلا وجهِ حقّ، عندما ينشر مقالاً كهذا لكاتب مغمور.

خرجت من عنده وقد زاد غضبي، ليس بما ذكره عن السُلطة والكُتاب والذعر المفضوح الذي يملأ صدره حتى يفيض، ولكن لأنّ مقالي الذي تعبت في كتابته لن يُنشر، كل جهدي ذهب هباءً.

فور عودتي إلى البيت، نشرتُ المقالَ في صفحتي الشّخصية ليقرأه أصدقائي، مذكراً نفسي بإيماني القديم، بأنّ ما تكتبه في وسائل التّواصل له أثرٌ أكبر من الذي تحدثه الصُحف الورقيَّة، غير أنها ما زالت تحتفظ بالكاريزما التي تجعلها ذات كلمة وتجعلنا نركضُ خلفها.

نشرت المقالَ ونسيت الأمر على ذلك، ولم أعد حتى لأرى مدى التفاعل معه، وبعد أيام، قابلني رجلان أثناء دخولي بوابة الصحيفة، وقد أكدتْ ملامحُهما الصارمة المستاءة أنّهما عسكريان، ينتميان إلى جهاز الأمن؛ مع أنهما لا يرتديان زيّاً عسكرياً بل قمصاناً اشتراكيّة كئيبة.

أمسكاني من يدي ثم خرجا بي حتّى وصلنا إلى سيارة عائلية بلا لوحات، تقف على الجانب الآخر من الطريق، وقبل أن أنطق بكلمة حذرني أحدُهما أن لا أفتحَ فمي بكلمة، ثم دفعني داخلَ السيارة. دخل خلفي ثمّ أغلق الباب بحركة سريعة وقوية.

لا أستطيع تسمية تلك الغرفة «زنزانةً»، فمعَ أنّ بابها شبيهٌ بأبواب

الزنازين التي رأيتها كثيراً في الأفلام، فإنّها من الداخل أشبهُ بشقة صغيرة، بها غرفة واحدة مرفق بها حمام ومِساحة صغيرة بها كرسي جلوس أحمر أمامه كرسي بلاستيك.

يبدو أن كثيرين قد اعتقِلُوا داخلها، هذا ما عرفته من الكتاباتِ الكثيرة والمتراكبة على الجدران، ويبدو أن ضباطَ المعتقل لا يرغبون في إخفاء هذه الكتابات مع الذي تحمله من بذاءةٍ وإساءة للمعتقل أحياناً.

يريد الضُّباط أن يخبروا كلَّ من يدخل هنا أن هذا المكان مخصوصٌ لأمثاله، وله حرية الحركة والكتابة ما دام تحتَ أنظارهم وداخلَ حيزهم الضيق؛ إنها وسيلة تعذيب؛ الكتابة بصيص حرية، لكن ما دمت محبوساً، فأنت كمن يجري في نفق مظلم، يحاول جاهداً أن يرى بقعة ضوء لكنه لا يراها أبداً، لقد سمحوا لك بالجري في نفق دائري.

لم أشأ أن أكتبَ شيئاً، لم أكن في مزاج يسمح لي بالجري، وكأي مواطن عادي تعرض لسوء تفاهم فضلت قراءة ما كُتِبَ على الجدران ثم لعن الكاتبين حيناً، والمشي جَيئة وذَهاباً حيناً آخر، وطوال السّاعات السّت التي قضيتها محبوساً لم أكن مرعوباً بشكل كبير، فقد كان جلياً أن للأمر علاقة بالمقال، ويمكن القول إن هؤلاء الرجال يعانون من راحة البال والفراغ، في النهاية سيتضح لهم سوء التفاهم وسأخرج، لا شك، فالمقال ليس منشوراً على صحيفة ويمكن أن أعتذر عنه، لا شيء يدعو للقلق.

وقف أمام الزنزانة ضابط متوسط القامة يبتسم بلا سبب واضح، يحاول بطنه الصغير عبثاً دفع قميص «القوقو» نحو الأمام ليجد

مساحته المريحة، يحمل في يده رزْمَةً من قصاصات الصُحُفِ، تتبادلها يداه في سرعة قلقة، فتح له العسكري بابَ الزنزانة؛ فدخل ثمَّ أغلق الباب بحركة سينمائيّة.

جلس على الكرسي الأحمر في حين اكتفيتُ بالجلوس على كرسي البلاستيك قبالته، وما إن بدأ حديثه حتى استخفت الابتسامة تماماً، أخبرني -كمَن يمد قطعة خبز إلى طفل جائع في الرصيف- أنني لم أُعرَّض لحفلة ضرب عند دخولي، لأنهم احترموني.

- «إن أردت أن تخرجَ من هنا معززاً عليك أن تكون متعاوناً وتجيب عن كلِّ الأسئلة»

وفي الحقيقة، كان هذا الكلام معقولاً بالنّسبةِ إليّ؛ ليس لدي ما أخفيه، لا أحمل أية أجندة ضد النظام، بل إنني أمشي في الظل حتى يخالني الناظر ضبّاً، إنه المقال فقط، وأمره هين، سأحذفه وأعتذر عنه، وأعود كما كنت ضبّاً وديعاً، فطلبت من الضابط أن يسأل ما يشاء من الأسئلة.

قال الضابط بعد أن تنحنح عدّة مرات:

- إلى أيِّ حزب تنتمي؟

حينها تحولت ثقتي العمياء تلك إلى حالة من الدهشة والتعجب، وعندما قلبت في رأسي سؤاله العجيب أصبت ببعض الغضب:

- أنت لم تبحث عني جيِّداً إذن، أنا أكره السّياسة لدرجة أني لم أكتب عنها قطُّ ولا همّ لي بها

قال الضابط غاضباً:

- وماذا تسمي هذا المقال؟

أخرج ورقةً مطبقة ثم مدّها إليَّ، فتحتها فوجدتها تحوي مقالي، هممت أن أدافع عن نفسي كما قررت، أردت أن أخبره أنَّ هناك سوءَ فهم، لقد أعطيتم الموضوع أكبر من حيزه يا حضرةَ الضابط، أنا رجل بسيط للغاية، لا داعيَ لتحميل هذه الكلمات المكتوبة أكثر ممّا تحتمل، لكني لم أستطع الكلام، شعرت بضيق مفاجئ في التّنفس، وبدأ عرقي يتصبب بسرعة، لقد انعقد لساني.

وبصورة مباغتة؛ تذكرت كلَّ كلمة قالها لي رئيس التّحرير يومها، فازداد الرعب توغلاً في نفسي، في غمضة عين تحولت إلى مجرم حقيقي عاجز عن الدفاع عن نفسه.

بعد لحظات، جاء أحدُ الجنود يحمل في يده دفتراً قديماً مده إلى الضابط، استطعت بقليل من التركيز أن ألحظ اسمي عليه، واستطعت أن أفهمَ أنه دفتر مراقبة ومتابعة.

حمل الضابط الدفتر في يده وأخذَ يقرأُ ما فيه بتمعن، ضحك ثم قال بلغةٍ ساخرة:

- نجوتَ اليوم، لقد استغرق الأمر زمناً طويلاً حتى عثرنا على هذا الدفتر، هذه التقارير كتبت عنك منذ أيام الجامعة، فعلاً ليس لديك سوابق، وإلا..!.

صمت قليلاً ثم أضاف:

- عليك ألّا تكرر فعلتك هذه مجدداً، لا شأن لك بسياسة الحكومة

في معرض الكتاب، واعتبر نفسك مفصولاً عن العمل إلى الأبد!.

رمى حزمةَ الأوراق على وجهي وخرج، جمعتُها ونظرت إليها، كانت جميعَ مقالاتي التي كتبتها خلال العام المنصرم، استغربت لماذا يقصّ الضابط مقالاتي من الصحيفة ويعطيني إياها، وضعتها على الطاولة ثم أرحتُ جسدي على الكرسي، وعادت نبضات قلبي لتعمل في انتظام، منتظراً أمر الإفراج، لقد تخطيت المرحلة الحرجة، حين تكون مضطراً لتبرير كل فعل طرأ منك، على أمل أن يصدقك المحقق وتفوز بحريتك من جديد.

لم تمضِ ساعة حتى حضر ثلاثةُ عساكر، مشدودة وجوهُهم، تكاد تتمزق، وقفوا أمامَ باب الزنزانة يحدقون فيَّ وفي الورق أمامي، يحمل أحدُهم وعاءً ممتلئاً بالحليب، فكرت محاولاً فهمَ ما يحدث لكني عجزت.

فتحوا باب الزنزانة ثم دخلوا بهدوءٍ وأحكموا إغلاق الباب، زاد الرعب داخلي، وتذكرت تلك القصصَ التي يحكيها الجميعُ عن هذه المعتقلات، لم تكن قصصاً تسرّ السّامع.

أمرني أحدهم أن أجلسَ وسط الغرفة على الأرض ففعلت، وضع الثاني وعاء اللبن أمامي ثم أمرني بغمس القصاصات داخله ففعلت، ثم طلب مني الثالث أن أعجنها حتى يصبح الخليطُ متماسكاً.

بعد دقائق من العجن، أمرني أحدهم أن أبدأ أكلَ مقالاتي فوراً، عندها ضحكت محاولاً تهوين الأمر على نفسي، قلت مستهجناً:

- ماذا؟ آكل مقالاتي؟

صفعني أحدهم على رأسي حتى سمعت صوتَ صفارة. صرخ بغضبٍ:

- كُل مقالاتك فوراً

يبدو أن الأمرَ جديّ، أحسست أني أقف على الهواء، لا شيء يرفعني إلى أعلى أو يدفعني نحو الأسفل، كنت فارغاً من الشعور، رفعت لقمة من الورق وقربتها إلى فمي، وبحركة بطيئة أدخلتها ثم رحت ألوكها في قرف ثم بلعتها.

رفعت لقمة أخرى وقربتها إلى فمي، وقبل أن أدخلها استفرغت كلَّ ما في بطني من طعامٍ وماء، ضحكوا ثلاثتهم ثم أمسكوني من يديَّ وجروني عبر الممر الطويل حتى البوابة، كانت ذات السيارة العائلية المظللة تقف هناك، زجوا بي في السّيارة ثم رموني أمامَ باب الصحيفة حيث أخذوني أوَّلَ مرة.

قمتُ من الأرض مستعجلاً ثم دخلت إلى رئيس التَّحرير، أردت أن أخبره كلَّ شيء، وأعترف له أن ما قاله كان عين الحكمة، لكني ما إن وقفت أمامه حتى سألني مندهشاً: - هل فكوا قيدك بهذه السرعة؟

بات يضايقني اليأسُ والإحباط الذي وصلت إليه، لم أجرؤ منذ زمن على الخروج والبحثِ عن وظيفة غير مرات قليلة باءت كلها بالفشل.

وعندما أحسست أن أمي باتت تضايقها قلة حيلتي، حصلت على عملٍ في محل بقالة تعمل بالتجزئة، محاولاً الخروجَ من قوقعتي، متحدياً فوبيا العمل التي أصبحت مزعجة للغاية، أُصاب بالتعرق والخوف كلما فتح أحدهم سيرة التوظيف أمامي.

صاحب البقالة طردني بعد يومين، واتهمني بالإهمال، ولم يكن الذنب ذنبي، فقد كانت الفئران التي تملأ المحل تأكل البسكويت بشراهة، كنت بحق أحسدها على تلك الشهية المفتوحة على الدوام، إذ أنني لو أردت منعها أكل البسكويت فيجب عليَّ أن أراقبها على مدار الساعة، وهذا ما يعجز عنه حتى حراس القصر الجمهوري.

بقيت ملازماً بيتي أشهراً، لا أفعل شيئاً سوى النّوم أو اجترار الذكريات، التي صار يملؤها حاتم بحضوره الطفولي القوي ووجهه الباهت، فقط أشعر بالامتنان لأنّني أجد لحافاً أدسُّ جسدي فيه، وأمي تناديني من غرفتي عند كلِّ وجبة لأملأ بطني.

لا شك، كنت في حاجة إلى دوافع جديدة لأواصل مساري في الحياة بجديّة، أو دوافع قديمة تتمثل عندي في صداقتي بحاتم، ربما تكون ذات جدوى لو أنني التقيت به الآن، فقد كان يدفعني دوماً نحو الأمام حتى وإن لم أكن راغباً في ذلك.

كان لديه شغفٌ شديد ليفعل كلَّ شيء يحبه، يتحدى العالم من أجله، يحدث ذلك في أصعب الظروف.

عندما قُتل إبراهيم المجنون بطريقة بشعة في طريق الزرائب، ووجدت الشرطة أحشاءَه داخل حفرة على بعد كيلومترين من موقع قتله، قام أهل الحي بحرق الزرائب خوفاً على حياتهم.

في تلك الأيام مُنعنا من الخروج إلى اللعب، وقد سيطر على أهلنا هوسٌ جديد، يظنون أنّ قاتلاً يستلذ بتمزيق الأحشاء يسير حرّاً طليقاً داخل حواري أمدرمان، فصرنا بسببه حبيسي الجُدُر لا نخرج إلا لوقت يسير.

كعادتي أحبطت تماماً، خاصّة أنّ هذه الجريمة حدثت في اليوم الخامس من بداية الإجازة الصيفيّة، كنا نخطط أن نقضيها في الشارع فقط لن نعود إلى بيوتنا إلا لننام بعد مغيب الشّمس، لكن كلّ تلك الخطط راحت أدراجَ الرياح.

ظننت حينها أن شغف حاتم بكرة القدم والتحاماتها القويَّة سيقل، وسينزوي داخل بيته كما قررت أن أفعلَ، لكنه جاء بفكرة جديدة، وأقنعني بأسلوبه السّاحر الغريب أن ننتقل للعب الكرة بألعاب الفيديو، يمكننا أن ننافس كلّ صبية الحي الذين ضربونا يوماً.

المؤسف أننا لم نكن نمتلك جهازَ ألعاب، وطلب المال من الأهل أشبه بطلب رصاصة لتقتل نفسك، سينظرون إليك بغضب، ثم يطلبون منك أن تكون أكثرَ تعقلاً.

الحلول حاضرة في ذهن حاتم على الدوام. اقترح عليَّ أن نشارك في مسابقة تحفيظ القرآن التي تقيمها لجنةُ الحي كلَّ عام، وقال:

- إننا بمبلغ تلك الجائزة نستطيع أن نشتري جهازاً جديداً من سوق أمدرمان، سمعت أن أسعارَ أجهزة الألعاب ليست صعبةَ المنال.

لم أستحسن مقالَه؛ فأنا أكره الحفظ، أكرهُ أساساً التّقييد بمواعيد يومية لتسميع الآيات على الشّيخ، تبدو فكرة المسابقة أقربَ إلى أسلوب المدرسة الممل، إضافة إلى ذلك، فأنا مصاب بالرهاب، ولا أستطيع أن أنطق اسمي أمامَ شخصين فما بالك عندما أقرأ ما حفظت في اليوم الختامي أمام جمعٍ من المصلين وبمكبراتِ الصوت، لا شك ساجنّ او اسقط مغشيّاً عليَّ.

لكن حاتماً كان ملحاحاً ومقنعاً، وتحت ضغطه الشّديد ذهبنا إلى شيخ المسجد في غرفته الصغيرة الملحقة بفناءِ المسجد، وكانت تلك المرّة الأولى التي يرانا فيها في حياته.

أحضر دفتره ثم شرع يدوّنُ اسمينا، لكنه قبل ذلك رفع رأسه ليسألنا:

- لماذا لم يأتِ والداكما ليسجلاكما؟

لم أستطع الإجابة، تبلدت وشُل لساني، لكن قال حاتم بسرعة بديهة حسدته عليها:

- «إنّهما مشغولان جدّاً؛ فوالدي مشغول بطاحونته. أمّا والده فمشغول بالسّوق؛ يبيع البضاعة في دكانه، ربما يقابلانك بعد صلاة المغرب».

اقتنع الشيخ ودَوَّن اسمينا، ولم يكن صعباً عليَّ أن أجد ما أقوله لوالدي عندما عدت إلى البيت، أخبرته أن إمامَ المسجد يطلب رؤيته بعدَ صلاة المغرب، فقد أصر أن نشارك في المسابقة فوافقنا، لكن بالتّأكيد ينتظر موافقتك.

خلال أسبوعين فقط كنا قد حفظنا سورةَ (يس) سابقين كلَّ الأطفال المشاركين، كان في داخلنا دافعٌ قوي لإتمام الحفظ، شيء ما؛ يجعلنا ننهض قبلَ صلاة الصبح لنراجع ما حفظنا، إنّه الوقت الذي كرهته أيامَ المدرسة أحببته ساعتها، كلّ يوم يمرّ؛ نحن نقترب من شراء جهاز الألعاب.

هذه القوة التي سكنتني حينها كانت بسبب حاتم، ولو أنّه لم يحبذ

تلك الفكرة لما تجرأت وشاركت في المسابقة، ما أحوجني إليه الآن ليحرك المياه الراكدة في حياتي، ليدفعني نحو الأمام قليلاً لعلي أفلح!

العجيب أنّني عجزت في العثور على صديقٍ مثله بعد أن فارقته، كلُّ الذين قابلتهم في حياتي اتكاليون، وأغلبهم يفضلون العملَ منفردين، لا يشركونك إلا إذا ضمنوا مقعداً أساسيّاً لهم. لا أدري إن كانَ حاتم بَعْدَ أن كَبِر نحى نحوهم، أم أنه احتفظ بخواصه تلك، لن أعرف إلا إذا التقيته، وهذا ما عجزت عنه عندما عدت قبلَ سنوات أسأل عنه، لقد رحلوا عن منزلهم بعدنا بعامين، ولا أحدَ يدري إلى أين.

لم يكن حفظي سورةَ (يس) متيناً، لكن حاتم كان يحفظ آيات كثيرة من السّورة؛ لأنّ والده المتدين، كان يجلسه كل صباح على الأرض أمامَه قبل أن يذهب إلى المدرسة، ليعلمه آيتين ثم يتركه ينصرف.

يتذمر حاتم كثيراً من هذه الحصة الإجباريَّة اليوميَّة، لكنه عندما شارك في المسابقة صار ممتناً لوالده وأحرز المركز الثاني في المسابقة، أحرزت أنا المركز العاشر، ومع ذلك؛ كنت أشعر برضاً شديد ولم تفارقني الابتسامة لأيام، واستطعت أن أقفَ أمام الجُمهور متجاوزاً خوفي. أمسكت مكبرَ الصوت ثم قرأتُ ما طُلب مني من آيات.

بسبب إحرازي مركزاً متأخراً، لم نستطع جمعَ المال الكافي لشراء جهاز جديد، لكننا اشترينا واحداً مستعملاً، وبه تعلمنا كيف تُلعب كرة القدم وكيف تُدار عبر القوانين.

أدمنّا اللّعب ولم نعد نخرج من البيت، نستيقظ صباحاً لنلعب ولا نقطع اللعب إلا لنأكل فقط، ثم نعود لنكمل ما بدأناه، ثم قللنا ساعاتِ

اللعب عندما بدأ نظر حاتم ينخفض، ليختفي الجهاز لاحقاً من دون أن نعرف مَنْ أخذه وإلى أين أخذه، لكننا لم نغضب، لقد اكتفينا من اللعب بالفعل.

الآن أنا أشتهي تلك الأيام اللذيذة، التي تبدو همومُها صغيرةً مقارنة بهمومنا الحاليّة، لكن ذلك ليس صحيحاً، فالهموم مفصلة لتناسب سنك وحاضرك.

تنتابني كلّ تلك الرؤى والذكريات محركةً فيَّ إحساساً عميقاً بالوحدة، وشعوراً قاسياً بأن حياتي قد انتهت، مع أنها لم تكن بتلك الجودة قبل أن أهجر الصَحَافة، ما يميز حالتي أنّني أعرف دائي ودوائي، لكني لا أتحرك خطوةً نحو الأمام.

كنت أخرجُ بين الحين والأخر لأقابل هالة صاحبة العينين اللوزيتين، نتسكع قليلاً في الشوارع ونزور المناسبات الثّقافية، نجلس في الصف الأخير لنتحدث في أمور أُخَر غيرَ عابئين لما يحدث حولنا، ثم نخرج لنأكل الآيس كريم بشراهة في أحد المحالّ.

أحب أن أستمع إليها، دائماً ما يكون حديثها دائراً حول يومها في الجامعة، خاصة المواقف التي تُظهر فيها رأياً مخالفاً لبقية زملائها، لا شيء كان يعجبها فيهم، فهم دائماً ما يميلون إلى التفكير بصورة تقليدية، وهي تبحث دائماً عن التجديد، ولم تكن تخبئ رأيها في مجال تخصصها، فدراسة القانون بالنسبة لها فسحة وليس كلاماً منزلاً.. أن تعطي رأيها في قانون وضعته الدولة منذ التسعينيات؛ هو شيء أسهل من شرب الماء.

كان أوّل ما لفت نظري ناحيتها أنها تأكل بنهم، تحب الأكل وتحب

صنعه مثلي تماماً، لذلك شعرت بالانجذاب نحوها، متجاوزاً جمالها الأخاذ وذكاءَها الظاهر.

عشت حياتي كلها أخشى أن أرتبط بامرأة لا تحب الأكل، ولا تتفنن في صنعه، وهذه ليست نظرة رجل متخلف، فأنا أحبّ الطبخ أيضاً، المسألة عندي مثل قراءة مقالٍ دسم تعب صاحبه في تجهيزه، أو فيلم وُضعت له ميزانية إنتاج عالية، أيْ أنّ أمر الأكل يتجاوز عندي النّظرة الضيقة للأمور ليصبح فنّاً مقدساً.

باتت تراودني فكرة الارتباط بها عندما تأكدت أنها تمثل النّقيض مني، فاعتبرتها نصفي الآخر الذي أبحث عنه، فأنا إنسان غارق في الفوضى أعجز عن ترتيب دولابي، غرفتي تغوص في الفوضى، أشعر بالإعياء إذا حاولت توضيبَ سطح المكتب في حاسوبي، في حين أنَّ هالة غارقة في النظام حتى أذنيها؛ دولابها مرتب، حقيبتها مرتبة، حتى طريقتها في الجلوس تبدو أنيقة ومهندمة.

حكت لي عن طفولتها، كانت ترتدي فستانها النّظيف وحذاءها اللامع، وتتحلى بحليها ثمّ تجلس على كرسي نظيف، تظل هكذا كل ساعات النهار من دون أن تبرح مكانها حتى يحين وقت النوم، لا ترضى أن يلمسَها أحد ولا ترضى أن تجلس في مكان متسخ، وإذا مست ملابسها ذرةُ غبار فإنها تسرع لغسلها، أما أنا فإن عدت بذاكرتي إلى أيام الطفولة؛ فلن أتذكر سوى الشّارع الذي أدمنت الطواف فيه، أجوبُ الطرقات بقدمين حافيتين، مرتدياً سروالاً قصيراً أبيضَ.

نحن مختلِفان، لكن اختلافنا جميل، تحتاج حياتي إلى كثيرٍ من النظام وتحتاج حياتها إلى القليلِ من الفوضى واللامبالاة.

لكن عيبنا الوحيد أننا لا نحبُّ الصخب، كلانا هادئ، ونضطر أن نستثمر الفوضى التي يحدثها الأصدقاء حولنا، وفور غيابهم نَعُود إلى وضعنا الأوّل هادئيْن تحفنا اللطافة واللباقة لا يُسمع لنا صوت عالٍ، نسير بهدوء فلا نترك أثراً على الأرض، هذه الهالة الملائكيّة تقلقني وتجعلني راغباً في تغييرها لكن لا أعلم الكيفية، عدا ذلك كل شيء رائع.

الشيء الذي أقلقني أكثر هو حَيرتي وارتباكي، كلما جئت أخبرها بكل تلك المشاعر، كنت في كل مرة أقول في نفسي؛ ليس هذا الوقت المناسب، نحتاج إلى المزيد من الوقت لنفكر، ربما لست أنا الرجل الذي تنشده، سأترك الأمر للأيام تحدد ما إذا كنا سنواصلُ كصديقَيْن أم أن هناك رأيّاً آخرَ.

كانت هي الشخص الوحيد الذي مِلتُ إليه بقوة بعدَ حاتم، غيرَ أنّني أتجنب أن أكون عفويّاً أمامها، وهذا ما تفرضه علينا دنيا الكبار، نحاول قدرَ الإمكان أن نظهر في صورة باهرة، نخفي عيوبنا قدر المستطاع، وإن ظهر منها جزءٌ -ولو بسيطاً- نصاب بالحزن.

الطفولة ليس فيها حزنٌ على ظهور العيوب، لذلك لا توجد عيوب من الأساس، هذه العيوب حالة تلبسنا فوراً، حين نطرق بابَ الرشد، ولا فكاك منها إلا بالموت.

كذلك كنت أحسّ بها تخفي عيوبها، ولأنني أعرف تعقيدات الأمر جيّداً، كنت أتجاوز التّعليق على ذلك، في اعتقادي حتماً سيأتي يومٌ تنهار فيه قدرتها على مداراة عيوبها، ربما يومها أستطيع مصارحتها بحبي.

كانت هالة تأخذ الحيز الكبير من وقت مكالماتي الهاتفيَّة مع ابن عمي

أمجد، والذي تخفف اتصالاته عني بعض وطأة الضجر والعطالة، ربما جَعَلَه وجوده في القرية أكثر قدرة على تحليلِ الموقف، لكنه كان عاجزاً عن تحليل حالته، لديه رغبة ملحة في الخروج إلى العالم بحكم دراسته، وفي ذات الوقت يحب القرية وهدوءَها، لا يريد أن يفارقَ زراعته، وبهائمَه التي يربيها منذ زمن طويل. إنّه شاب خرطومي لكنه يرفض الاعتراف بذلك.

نادراً ما يزور الخرطوم، لذلك عندما هاتفني ذلك اليوم بنيته في القدوم، ذهبت فوراً لاستقباله في الميناء البري من الصباح الباكر، كان قادماً من مدينة عطبرة، التي تبعد عن القرية مسافة مئة كيلو، وهي المكان الوحيد الذي سيجد فيه حافلات قادمة إلى الخرطوم.

انتظرته في الميناء قرابةَ ساعتين، مع علمي أن الحافلات لا تصل في موعدها المضروب تماماً، فإنّي أردت أن أبقى خارج البيت لأطول وقت، ما دمت تجرأت وخرجت.

ظللت طيلة انتظاري أراقبُ الناس حولي، خاصة باعة الفواكه والخضرَاوات، الذين يفترشونها على الأرض بالقرب من مجاري الصرف الصحي، وخلفهم مباشرة سور من الزنك يبول الناس فيه ويبصقون، تبدو حالة الميناء مزرية تماماً وفوضوية، باعة وسماسرة ولصوص في كلّ مكان وصخب شديد وزحمة.

في أثناء ذلك، جاءت سيارة حكومية يقودها رجل من أرباب المعيشات، أثارت فضولي بسبب لونها الفاقع الذي لا يشبه الألوان الباهتة التي يعجُّ بها الميناء.

ترجل الرجل عند بوابة الدخول يحمل في يده أوراقاً كثيرة ودفاتر وأقلاماً، ثم تحرك داخلاً إلى أحد المحال، راقبته حتى غاب عن نظري، في تلك اللحظة جاء عدد من باعة الفواكه والخضراوات إلى السيارة، كان صُندوقها الخلفي مفتوحاً فوضعوا داخله أكياساً كثيرة، أحكموا إغلاق الصندوق جيّداً ثم انصرفوا.

بعد دقائقَ عاد الرجل من جديد، أدار سيارته ثم انصرف، شعرت بالحَيرة؛ فسألت أحد الباعة بقربي عما حدث، أخبرني البائع العجوز في هدوء بأن هذا موظف من وِزارة الصحة، من المفترض أن يمنعنا من العمل، لكننا نكرمه بالقليل من الفاكهة فيتركنا وحالنا.

رفعت حاجبيَّ في حَيرة، قلت وأنا أتلعثم في الكلام من هول ما سمعت:

- لماذا يترككم وأنتم تنشرون الأمراض بهذه السهولة؟ انظر حولك إلى هذه الفوضى العارمة.. كيف يفكر هؤلاء؟

اقترب البائع العجوز مني ثم أمسكني من يدي بقوة وقال غاضباً:

- ليس لك شأن في هذا، نحن إمّا نعمل هنا وإمّا نصبح لصوصاً نسرق من أمثالك، أنتم لا تعلمون كيف نعيش، تريدون كلَّ شيء مرتباً ولا تريدون أن تُسرق حاجاتكم، يا لكم من مغفلين! هذا الموظف يعلم ذلك جيّداً، لذلك لم يرَ ضرراً في نفعنا والانتفاع.

شعرت ببعض الغضب وانسحبت مبتعداً، مشيت قاصداً باب الخروج، لم أشأ أن أسمع المزيد من ذلك الهُرَاء، وفي أثناء ذلك أخذت أتمعن في الباعة وبضاعتهم، نظرت داخل أعينهم فلم أجد سوى التعب، تمالكت نفسي وفكرت في حديث البائع العجوز مرّة أخرى.

هذه الخضراوات المفروشة على الأرض تعيل أسراً كثيرة، هناك طلاب مدارس يأخذون مصروفهم بعد أن يبيع والدهم قدراً من الفاكهة، وفي اليوم الذي سيقرر فيه موظف وزارة الصحة أن يؤدي عمله على أكمل وجه ستغلق كل هذه البيوت، وسينضم مجرمون جدد إلى دائرة الإجرام.

نظرت إلى بائع الموز، قدمه مشلولة لا يقوى على الحركة، لا شك أن ابنه يأتي به كل يوم ثم ينصرف إلى المدرسة، لا بدَّ أنّ هذا العجوز هو أوّل مَن يجهز بعض الفاكهة المنتقاة لموظف وزارة الصحة، لأنّه إن تخلف يوماً عن ذلك؛ فلن يجد ابنه مالاً ليكمل دراسته.

قطع حبلَ الأفكار اتصالُ من أمجد، أخبرني بأنه ينتظرني أمام بوابة الوصول فذهبت إليه، لم أره منذ سنة تقريباً، لذلك كان اللقاء حارّاً، ثم ركبنا التاكسي إلى البيت.

لم يكن أمامه وقتٌ كافٍ، أراد أن يخوض بعض الدورات التدريبية المتعلقة بتخصصه، ليزيد الغلة من الشهادات، فيتسنى له الحصول على فرصة عمل.

حسدته حقيقة على تلك الحماسة، مع علمي أن ما يفعله من تدثُّر بغطاء الدّراسة، هو مجرد فرار نحو الأمام، ونوع من أنواع الإدمان، فما إن يتسلم الواحد منا شهاداته حتى يحسّ أنه قد أصبح في العراء، فيعود إلى فصول الدراسة من جديد هارباً مما قد يقابله، لأن ما بعد الدراسة يبدو صحراء حالكة لا صباح فيها، إلا لأصحاب الواسطة، والذين لا يحتاجون على الإطلاق إلى المزيد من الشهادات الأكاديمية، إنّ الدراسة يأس حميد.

خرجت وأمجد بعد المغيب لنتسكع كما نفعل عندما نلتقي دائماً. لدينا الكثير لنقوله من دون تخطيط سابق، نسير بلا وِجهة، حيث تدفعنا الحكايات والضحكات نحو الأمام فقط إنها الوسيلة الوحيدة لتزجية الوقت في هذه البلاد، لا وسائل أخرى متاحة غير الحكايات واجترار بعض الذكريات الجميلة.

جلسنا في النهاية عند بائعة قهوة إثيوبيّة، فتاة نحاسيّة اللون تحتمي بخيمة صغيرة تجعل داخلها أدوات عملها، بينما توزع الكراسي البلاستيكية على امتداد المكان الذي حددته لها السلطات في شارع البحر.

جلسنا على كرسيين واتجهنا ناحية النيل، ومن خلفنا كان ضجيجُ السّيارات يثير فينا شيئاً من القلق، ظللنا نتحدث ساعات ونحن نحتسي قهوتنا.

تحدثنا عن تجربتي المريرة في دهاليز جهاز الأمن، مع أنّه لم يكن يراها مريرة فهناك من عانوا أكثرَ مني، بل هناك مَن فقد حياته بالفعل، وكان باستطاعته أن يروي لي مئات القصص عمن دخلوا تلك المعتقلات المظلمة والباردة، يدخلون فقط لأنهم قالوا كلمة حق وأصروا عليها، وأما في حالتي أنا فقد كنت مستعداً للاستسلام من أول جولة، وكنت على استعداد للاعتذار وسحب المقال، ويكاد يجزم الذي ربما كنت سأكتب مقالاً آخر أطبل فيه للنظام السابق، نفيت ذلك بشدة، لكني لم أستبعده، ليس لأنني أريد أن أطبل لأحد، لكن إن كان ذلك يحفظ لي حقي كضب يمشي على حائط ظليل فربما كنت سأكتب المقال.

أنا عكسه تماماً، فهو يسير في الهجير، دائماً ما يكون رأيه على حافة لسانه، لكنه رجل محظوظ، لم يتعرض له أحد من قبل، قضى أيامه في الجامعة بعيداً عن أركان النقاش قريباً من موضوعاتها، ربما ذلك جعلهم يصابون بارتباك، فكانت التقارير في شأنه تأتي متضاربة، ما بين شاب قروي ساذج ينعق بما لا يسمع، وأخرى تتحدث عن رجل ثوري ربما يكون قيادياً.

يرى أمجد أن الثورةَ قادمة لا محالة، فكل ما حولنا يشير إلى ذلك، قطعة الخبز الواحدة أصبحت تباع بجنيه كامل مع صغر حجمها، وعلاوة عليها زاد التضخم إلى الحدّ الذي جاع النَّاس بسببه.

زاد القمع إلى درجة أنك تخشى أن تحدث نفسك في شأن الحكم وأنت تقضي حاجتك مختلياً بنفسك، كرامة الإنسانِ السودانيِّ مُسحَتْ بالأرض، أصبح أحدُنا يهانِ في كل بلد يدخله.

الرئيس المخلوع لا يحسن سوى لغة التهديد والوعيد، وهي لغة لها وقعها وهيبتها لكنها هشة من الداخل، يمكن في أيِّ يوم أن تسقطه عن سدة الحكم، وسيسقط من داخل بيته، أي أننا لن نحتاج إلى السّلاح.

كنت أستمع إليه وأضحك في توجس، ثم قلت له:

- إننا لن نستطيعَ إسقاط هذه الحكومة، لسبب واحد.. إن جذورها قوية، في كل بيت تجد منتسباً إلى الحزب الحاكم أو مؤسساته العسكريَّة، لذلك لا تعشم في التغيير.

ثم انحرف بنا الكلام ناحيةَ الدراسة، أخبرني أنّه يشتاق إلى أيام الجامعة كثيراً، وإلى لمةِ الأصدقاء تحت ظل شجرة النيم المقابلة

لمبنى الإدارة، وإلى سعدية بائعة الشاي التي تعدت وظيفتها كبائعة إلى كاتمة السّر وحافظة الأمانة.

ثم أخرج هاتفه ليريني بعض الصور من الجامعة وبعض رواد شجرة النيم الظليلة، وفي أثناء التّصفح رأيت شخصاً ملامحه مألوفة عندي.. شاب وسيم له شعر منساب عبر جبهته، أنيق يرتدي سترة البرد ويبتسم في ثقة، يجلس على مقعد رسم عليه شعارُ الجامعة.

استوقفت أمجد وطلبت منه أن يُكبّر الصورة أكثر ففعلَ، تمعنت في ملامح الشّاب من جديد، بدت لي مألوفة إلى الحد الذي أصابني بالصداع، ومع ذلك لم أعرف صاحبها.

سألته إن كان يعرف هذا الشاب، فأجابني:

- إنه حاتم، درسَ في الدفعة التي تسبقنا

حينها تجمَّد الدم في عروقي، وشعرت برعشة قوية تسري في كامل جسدي، واستعدت كلّ تلك الأحلام التي رأيتها والخيالات التي جالت في رأسي من قبلُ.

بدأ وجه حاتم الطفل يتشكل داخل رأسي من جديد، ويتحول الأسى -الذي كنت أحسه كلما رأيت الوجه الخالي من الملامح في ذاكرتي- إلى أمل طاغٍ.

سألته متلعثماً:

- هل تعرف كيف أصل إليه؟

أجابني:

- لا.. لا أعرف عنه الكثير، غير أنه شاب ساخط على الدوام لكنه طيب، كان يجلس برفقتنا تحت ظل الشجرة، يأتي مع بعض أصدقائه من أبناء دفعتهم، يشربون الشّاي ويناقشون قليلاً بعض الأمور، نادراً ما كان يتحدث معنا، لكننا متعارفون، ويعرف كل منا اسمَ الآخر.

كنت أستمع إليه وأنا بين مصدق ومكذب، تخرج حاتم قبل أمجد بسنة واحدة، وقد كان أوَّلَ دفعته وهو الأمر الذي أثار دهشتي، حاتم الكاره للدراسة يصبح أوّل دفعته، لا بدّ أنَّ همومه قد تغيرت بالكامل وسيطرت الدراسة على تفكيرِه، هل ما زال يحب اللعب يا ترى.

أمسكت أمجد من يده، أخبرته بأنني سأمهله يومين فقط، عليه أن يجلب لي رَقْم هاتف حاتم، عليه أن يجتهد إلى أبعد حد يستطيع، سحب يده ضاحكاً وقال:

- أجل.. سأفعل.

المرّة الأخيرة التي رأيت فيها حاتم كانت هي المرة التي فقدت فيها حماستي للأشياء إلى الأبد، وصرت منقاداً خلف رؤيتي الضيقة لما حولي، والتي تخفق دائماً في إسعافي للتخلص من ورطات الحياة.

ذلك اليوم كان -نهار الجُمُعة- يومي الأخير في الحيّ وفي رفقة حاتم، كان يبكي في أثناء رفعه بعضَ الأثاث على الشّاحنة، يحاول مداراة دموعه بلا فائدة، دفع الكرسي إلى داخل الشاحنة فانسابت الدمعة على خده، أفلت الكرسي بسرعة ليمسحها فوقع على الأرض وانكسرت إحدى قوائمه.

اكتفيت بالضحك على حساسيته الزائدة، وضعت يدي الصغيرة

على كتفه وأخبرته أنني لن أنقطع عنه أبداً، سأزوره أيام الجُمع وإجازات المدرسة، فأجابني بثقة العارف أنني سأعود في الأيام الأولى فقط، ثم سرعان ما تأخذني مشاغلي الجديدة عنه، وسأجد لي أصدقاءَ جدداً يسكنون بالقرب مني وسيسدون خانته في قلبي.

لو كنت بوعيي الكامل حينها لفكرت أنه صبي حكيم ولا يبالغ، لكني وقتها سخرتُ منه واعتبرت مخاوفه مبررة لكنها لا تليق بحالتنا، كيف لي أن أنسى أعزّ أصدقائي، الشخص الوحيد الذي يبعد عن قلبي اليأس، بالله عليك يا حاتم؛ سأزورك كلّ أسبوع.

وسرعان ما تحققت توقعاته، إذ إنني لم أزره سوى مرّة واحدة، إلا أن شوقي له لم يخبت أبداً، وهو ما دفعني بعد سنوات -كانت كافية لأستقل مادياً وأكون قادراً على تحديد وجهة ذهابي دون أن يردعني أحد- أن أعود إلى حيّنا القديم سائلاً عن صديقي، وللأسف لم أجد سوى بيت مهجور مهدم، حاول صاحبه الجشع أن يعيد بناءَه بعد أن طرد حاتم وأمه، لكنه أفلس قبل ذلك واضطر إلى بيع بيته كقطعة أرض فقط.

وقفت على الأطلال أستعيد ما استطعت من ذكريات، رغبت بشدة في إعادة الزمنِ إلى الوراء، أريد أن يعود كل شيء كما كان، فالتّغيير طال كل شيء في حياتي، حتى أهلي لم يعودوا كما كانوا.

نظرت إلى منذنة المسجد الظاهرة خلف البيوت، ابتسمت فسمعت صوتي يأتي قوياً عبر مكبر الصوت وأنا أتلو آياتٍ من سورة يس، يوقفني الشيخ بقوله: (حسبك)، ثم يأخذ مكبر الصوت ليمرره للمتسابقِ التالي، الآن أفهم لماذا قال حسبك، لقد خشي أن أخطئ، لقد كانت قراءتي سيئة للغاية.

احتاج أمجد إلى شهرين ليأتيني برقْم هاتف حاتم، بدلاً من اليومين اللذين حددتهما له، اعتذر بأن انقطاعه عن بقية الدفعة أفقده التواصل معهم، واحتاج أن يتصل بعشرة أشخاص حتى يوصلوه إلى أشخاص يعلمون شخصاً يملك هاتف حاتم، وقال ضاحكاً:

- الأمر ليس بتلك السهولة يا ابن عمي.

في اليوم التالي مباشَرة سافر أمجد إلى عطبرة في طريقه إلى القرية، بعد أن أكمل الفترة التدريبية المطلوبة وأخذ شهادته التي يتوهم بأنها ستجعل منه موظفاً مرموقاً في الحكومة، وتركني وحيداً في غرفتي مع ورقة صغيرة عليها رقْم هاتف، والكثير من الشجون.

ذهب أمجد وعدت إلى عزلتي الأولى، جالساً بين أربعة جُدُر، لا أفعل شيئاً سوى التمعن في الورقة، ذهب بعد أن ملأ أيامي بالضجيج والخروج عن العزلة، وهذا ما كنت أخشاه منذ البَدَاءَة.. أن أبقى على حالي الأولى أهون عليّ من أن أجرب الرُّفقة السَّعيدة لأيام ثم أفقدها مجدداً.

لم أعد أملك سوى التمعن في الورقة وقراءة رقْم الهاتف مراراً، لا أدري لماذا لم أشأ أن أتصل مباشرة فور استلامي للرقم، ربما هو الخوف من ألا يجيب، أو الخوف من النسيان، أخشى أن ينكر وجودي في حياته من قبل، ربما بسبب أنه نسيني أو أنه لا يزال غاضباً مني.

لكن لم يكن من الأمر بدٌّ، قررت اليوم أن أقتحمَ الأبواب وأتصل بحاتم، فتحت هاتفي ثم دونت عليه الرقْم وضغطت على زر الاتصال، انتظرت للحظات بسيطة قبل أن تأتيني صفارة الجرس، بدأ قلبي ينبض فعلاً كما توقعت، مع أني طمأنت نفسي أن ليس هنالك ما يمكن

أن أخشاه، إن تذكرني فهذا خير لا شك، وإن نسيني فنواميسُ الكون لن تتغير، بل إنها ستسير في ذات مسارها الذي ارتضيته منذ البدء.

جاءني صوت من الجهة الأخرى مجيباً وفي نبرته شيء من الاستغراب، سألته إن كان هو حاتم فأجابني:

- نعم.. أنا هو، مَن أنت؟

سكت للحظات بسيطة، جالت بخاطري عشرات الأفكار، وسألت نفسي إن كان عليَّ المواصلة أم لا، أجبته بصوت متردد معرفاً بنفسي، صمت بدوره للحظات، أحسسته يحاول التَّذكر ويبحث في دهاليز رأسه عن شخصٍ بهذا الاسم وهذه الصفة، أو يفكر في كيفية التخلص من هذا الصديق العَاق الذي يسأل عنه بعد كل هذه السنوات.

شعرت برغبة عارمة في الاعتذار وإغلاقِ الهاتف وتمضية باقي أيام الأسبوع في الندم على ما فعلت، لكنه دهمني بضحكة ترحيب حارة، حينها أحسست بأن ناراً في صدري انطفأت.

سألته عن حالِه وسألني، تحدثنا قليلاً عن الغيبة الطويلة التي حدثت واعتذرت له، لكنه تقبل الأمر بصدرٍ رحب وضحك على حساسيتي الزائدة، بالنسبة إليَّ الأمرُ يستحق الاعتذار فعلاً، فخانته في حياتي ظلت شاغرة كل هذه السّنوات، وهو بطبيعته المقتحمة استطاع أن يملأ خانتي سريعاً، لذلك؛ الاعتذار بالنسبة إليه ليس أمراً مهمّاً.

- هل لا تزال تتعرض للضرب بسبب الكرة؟

- يا رجل، لقد أصبحت محترفاً، تم تسجيلي في فريق أشبال الهلال لكنهم طردوني عندما عرقلت لاعباً فسقط وجرحت رجله.

- أنا لم ألعب الكرة منذ سنوات.

تحدثنا لمدة كان يتخللها بعض الصمت، لا شك أن الشغف قد خفتَ قليلاً وهذا شيء طبيعي، إذ لم تعد تجمع بيننا هموم أو أهداف، نحن الآن مثل شخصين التقيا في الشارع مصادفة، لا يعرف أحدهم شيئاً عن الآخر، فشرعا في مناقشة قشور الحياة وسطح أفكارها، لكن رغم ذلك بذلنا مجهوداً مقدراً لنثري المحادثة.

طلبت منه أن نتقابل في الأيام القليلة القادمة فوافق على الفور.

أخبرني أنه يعمل هذه الأيام معلمَ لغةٍ إنجليزية في أحد المعاهد في السُوق العربي، سيكون من الجيّد أن نلتقي الأربعاء القادم في ساحة آتني[1] وسط الخرطوم.

أغلقت الهاتف وأنا أحس بمشاعر مختلطة، كنت حائر التّفكير في أن أعز أصدقائي نسيني بالفعل، وأن من الطبيعي ألا يكون هناك الكثير مما يقال بيننا، خاصة أنّ فراقنا طال لسنوات، تبدل خلالها كل شيء تقريباً، حتى أشكالنا لم تعد كما هي، عمل عليها الزمن بأدواته فغيرها تماماً، وستبذل جهداً إضافياً لتتعرَّف إلى شخص فقدت صحبته منذ سنوات.

فكرت أنني أستطيع أن أعيد كل شيء إلى مساره القديم عندما أقابله، واجترار الماضي -فعليّاً- ومحاولة إحيائه من جديد لن تجدي، فما مضى قد مضى، نحتاج إلى بَدَاءَة جديدةٍ وصداقة جديدة، تبدأ من حيثُ نلتقي يوم الأربعاء، وعليَّ ألا أرفع سقفَ التّوقعات، عليَّ أن أتوقع شخصاً جديداً ومختلِفاً عن حاتم الذي عرفته قبل سنوات طويلة.

---

1 - ساحة آتني مكان وسط الخرطوم، يلتقي فيه محبو الثقافة والشعر.

الحديد والنار

في صباح الأربعاء خرجت للقاءِ حاتم، ارتديت بذلة التّخرج القديمة، التي لم تفقد ألقها حتى الآن، رغم أن تضاريس جسدي تغيرت مراراً، فقد صار نهباً للأطعمة السريعة والتوابل.

ركبت الحافلة من أمام البيت وصولاً إلى محطة جاكسون، ومن هناك لم أجد 89 وسيلة تقلني إلى ساحة آتني، فقررت المشي حتى أصل إلى السَّاحة، استغرق الأمر نصف ساعة حتى وصلت إلى مول الواحة القريب من الساحة، وهناك لاحظت وجوداً أمنيّاً مكثفاً، حدثتني نفسي أن لا شيء يدعو للقلق، فنحن نعيش في كنف دولة بوليسيّة فاشية، إذا سكب قط صغير اللبنَ فسترسل خلفه الجيوش لتأتي برقبته، ولا بدَّ أنهم يبحثون عن قط ما؛ الآن، إذنْ ليس للأمر عَلاقة بالأمن القومي ولا الإرهاب.

كلُّ القوات التي رأيتها أمامي ترتدي زيّاً مدنيّاً، أغلبهم طلاب جامعيون، اعتدنا أمثالَهم مبكراً منذ أيام الجامعة، حيث يُمنحون صلاحيات واسعة، حتى الشرطة لا تحصل عليها.

عُرضنا للضرب المبرِّح بأيديهم منذ أوَّل يوم لنا في الجامعة،

عندما وقفنا نستمع إلى طالب يتحدث عن توقف الإنتاج ولجوء الدولة للديون الخارجية، كان حديث الطالب بالنسبة إليَّ أقربَ إلى تحليل منطقيّ للأزمة، لكنهم يعتبرونه خروجاً على الدولة، وهنا لا لغة لهم سوى القمع الشديد.

كانوا يصطادون الطلاب داخلَ الحرم الجامعي مثل حيوانات صغيرة فرَّت من أقفاصها، يضربونهم حتى يموت بعضهم فلا يجد حقه، وبعضٌ آخر يُعرض للحرق في ظهره على أقل فرض.

ذلك اليوم لم ننل سوى الضرب المبرح ثم تركونا ننصرف، إلا أن ذلك الطالب ظل مطارداً حتى تخرّج.

إنهم لا يفصلونه عن الدراسة، يعتبرونها قتلاً رحيماً ورَءُوفاً، لكنهم يلجؤون إلى طرائق أكثر فظاظةً، ليس من ضمنها الاستدعاء الدوري وكيل الشتائم والضرب، فهذا كان أقل ما يقدمونه له، إنما يستهدفونه في دراسته نفسها، يظل عالقاً في فصل دراسي لدورات متلاحقة، وعندما يفقد الأمل ويقرر أن يذهب في حال سبيله، يحيون فيه الأمل من جديد، ويمررونه إلى الفصل الذي يليه، لتبدأ تلك الدوامة المهلكة من جديد.

كثيرون في الجامعة كانوا عباقرة، لكنهم بسبب كلمات بسيطة قالوها من دون حساب، أصبحوا من أراذل القوم، تمرُّ من أمامهم فترثي لحالهم، وتردد في قلبك «السَّعيد من وُعِظ بغيره»، قضينا تلك الأيام تحت الظل لا نبرحه أبداً، ليس خوفاً على حياتنا فقط ولكن نظرة شفقة نحو المستقبل والوظيفة التي لن نحصل عليها بسجل ملطخ.

على نحو مفاجئ اتصل بي أمجد، وعلى غير عادته الهادئة، كان يلهث بقوة لكن صوته كان طَرِباً، صرخ في أذني:

- الثورة قد انطلقت أخيراً.

سألته ساخراً:

- عن أي ثورة تتحدث يا ابن عمي؟

قال ناهراً:

- هذا اليوم التاسع عشر من ديسمبر 2018، عليك أن تتذكره جيِّداً، اليوم انطلقت شرارة الثورة، مدينة عطبرة خرجت إلى الشَّارع عن بكرة أبيها.

قاطعته:

- ما الذي يبقيك في عطبرة إلى الآن، لماذا لم تعد إلى القرية؟

تجاهل حديثي وواصل في هيجان، يشرح ما حدث بالتَّفصيل، خرج مجموعة من طلاب المدرسة الصناعيّة لتناول وجبة الإفطار في مطعم شعبي قريب من المدرسة، وجبتهم معروفة وتكاد تكون الوجبة الرسميَّة لكل الطلاب في السودان، ثريد الفول مضافٌ إليه قطع الخضراوات والشطة، ليفاجئهم صاحب المطعم بزيادة أسعار الخبز على الضعف.

اعترضوا عليه فقال ساخراً:

- إن لم يعجبكم الأمر؛ فلتسقطوا الحكومة إذن.

أطلق الرجل تلك الكلمات مبتسماً، ولا يدري أنّها حركت الكثير داخل صدور راكدة، وأثارت الحَنَقَ ضد الحكومة قبل أن تثيره ضده، بدأ الطلاب يهتفون في قوة ضد الحكومة وغلاء المعيشة، وما هي إلا لحظات حتى تجمع موكب كبير من الهاتفين السّاخطين، ليجوبوا أرجاء المدينة وينضم إليهم الجميع.

وعندما نقول الجميع؛ فنحن نقصدُ الجميع بالفعل، ففي عطبرة لم يبقَ بيتٌ لم يخرج أهله إلى الشارع.كانت المدينة تغلي كمرجل.

أغلقت الهاتف وأنا أحدث نفسي أن ما حدث لا يعدو أن يكون هوجة جياع، سرعان ما يعودون إلى بيوتهم بعد أن يستنشقوا الكثير من الغاز المسيل للدموع، وتلتهب ظهورهم بسياط الأمن.

تقدمت متخطياً سيارات الدفع الرّباعي المحملة بالجنود مروراً بالشارع المتاخم لبرج البركة، ثم دخلت إلى آتني من جهتها الغربية وجلست عند أوّل بائعة شاي.

ظللت جالساً دقائق حتى ألتقط أنفاسي، ثم نظرت إلى بائعة الشاي رافعاً يدي محاولاً أن أطلب كوباً من الشاي بالقرفة المسحونة، لكنها في تلك اللحظة بدأت تلملم حاجاتِها بجنون وتضعها داخل حاوية متوسطة الحجم.

سألتها في تعجب:

- ماذا هناك، لماذا ترحلين؟

لكنها لم تجبني، بل واصلت بذات الفزع والجنون جمع الكراسي حولها، أمسكتُ الكرسي الذي أجلس فيه فنهضتُ واقفاً، وفي ضجر

حانت مني التفاتة ناحية الشارع القادم من جهة الغرب، فرأيت سيارات الدفع الرّباعي وهي تقتحم السّاحة.

لم يكن واضحاً ماذا يريدون، لكنهم أوقفوا شاباً داخلاً الشارعَ للحظات، ثم أمروه بالصعود إلى السيارة، حينها لم أفكر كثيراً، فررت عبر الشارع الجنوبي، جريت حتى استخفت آتني خلفي ولم أتوقف حتى وجدتني قد عدت إلى موقف جاكسون من جديد.

أخرجت الهاتف ثم اتصلت بحاتم، حتى نغير مكان اللقاء أو نؤجله لكنه لم يجبني، ولم أجد بدّاً من العودة إلى البيت بلا أي نتيجة، فلا شك خلال ساعات سيخلو المكان من أصحاب المواصلات، الذين سيفرون خوفاً من انسداد الطرق، وسيعج المكان بنقاط التفتيش وبعض اللصوص.

لطالما كرهت نشرات الأخبار، وكرهت القنوات التي تعرض برامج التحليل السياسي والاقتصادي، لم أكن حتى وقت قريب أعرف إن كانت هذه الأشياء ذات أثر في حياتي أم لا، المهم أنها كانت تجعل أبي عصبياً، يتابع الأحداث كأنه من يصنعها، ويطلق لعنات على الساسة من حين لآخر، ولم يتركها حتى لحظة وفاته، وكرهتها لأنها كانت تذكرني، كلما رأيتها، بتلك اللحظات التي أجلس خلف كرسيه منتظراً انتهاء النشرة، لأجلس وأتابع برامج الكرتون، التي كان هو يكرهها.. لقد كرهت تلك النوستالجيا التي تعتريني كلما رأيت المذيعة وهي تتلو الأخبار الحزينة بفم مبتسم.

جال ذلك بخاطري وأنا متسمر لساعات أمام التلفزيون أتابع ما حدث اليوم في عطبرة، وفكرت إلى أي حد قد صرت رجلاً، وأحسب

أنني عجوزٌ إلى حد كبير إن كانت مفارقة الكرتون والجلوس أمام نشرات الأخبار، وإسدال النصح للصغار يعد دليلاً.

الصور واضحة كالشمس، الغضب يزداد في كل دقيقة تمر، كان لتوقعاتي أن تصدق، وتمر هذه الاحتجاجات كما مرت في عِدَّة مدن قبل أيام، ولكن ما تغير في احتجاجات عطبرة هو وقوع القتلى، وعندما يموت أناس في سبيل عمل ما، فإنه يصبح مقدساً، ويكون السعي في إثره دافعاً لمزيد من الموت، وكذلك إحراق الدار الرئيسة للحزب الحاكم في المدينة، لم أكن أتصور أن ذلك قد يحدث يوماً، تلك الدور كانت بمثابة القلاع المحصنة التي لا يدخلها إلا أصحابها، إنها مكان تخشى أن تمر بشارعه، ترابط سيارات الأمن أمام بوابته متحفزة، لكن عندما أنظر إليه الآن وأجد النيران الشرهة تلتهمه كلقمة سائغة، أفهم لماذا زاد جنون الناس وصاروا يرفعون سقف التوقعات، واندفعوا يتناقلون الدعوات لقيام المواكب داخل الخرطوم في مواقع الواصل.

نظرت إلى التقويم الميلادي المعلق على الحائط، يبدو أن سنةَ 2018 لا تريد أن تخرج دون أن تضع بصمتها، ولا تريد تسليم الراية للسنة التي تليها إلا وقد سطرت نفسها في كتب التاريخ، لا يتسنى في العادة للسنوات أن تضع بصمتها، أصبحت فقط تمر رتيبة وتشبه التي تسبقها، ويمكن ببساطة التنبؤ بأن التي تليها لا تختلف عنها كثيراً.

انتبهت إلى أنني جلست طويلاً أمام التّلفاز، حتى عندما تحركت سمعت طقطقة ظهري وأحسست بالألم، جفت عيناي من طول التّحديق على الشاشة، وهو ما لم أعتده قبلاً.

كدت أنسى أمر الاحتجاجات بعد أيام لولا ظهور صفحة في

الفيس بوك تحمل اسم تجمع المهنيين، بدت غامضة ولا أحد يعرف من يقف خلفها، لكنها وافقت هوى الجميع ونالت استحسانهم بسرعة، وأصبحت إعلاناتها للتظاهرات في الخامس والعشرين من ديسمبر تنتشر مثل النار.

ذلك الإجماع على تجمع المهنيين لم يكن وليدَ مصادفةٍ، بل هو وليد الغموض الذي لف التجمع. لا أحدَ يعلم من هم قادته، ولا أحد يعلم إلى أيِّ حزب ينتمون ولا إلى أي إقليم، فقط جهة تنشر بيانات منمقة ومضبوطة لغويّاً بشكل يجعل الجميع يقف مصفقاً.

هذا الغموض أزاح عن قادة التّجمع عبئاً ثقيلاً، فهم لن يُعرَّضوا للضغط كأشخاص منفردين، غموضهم سيجنبهم الخلافات التي تنشأ عادة حول فلان وعلان من الناس لمجرد تصريح قاله، أصبح الناس ينتظرون البيانات فقط ولا شيء غيرها.

شعرت بالكثير من القلق. فكرت أن الأيام القادمة ربما تكون كارثية، حاولت الاتِّصال بحاتم لأطلب منه أن نلتقي قبل يوم الخامس والعشرين، لكنه لم يكن يجيب على هاتفه، لم أستطع التّكهن بسبب تجاهله لهاتفي، لكني فكرت أن أتصل به بعد يوم الخامس والعشرين.

في الصفحة الخلفية لكتابي المفضَّل دوَّنت تاريخ لقائي الأول بهالة، كثيراً ما أنساه فأفتح الصفحة لأقراه، وأتذكر ذلك اليوم المبهج عندما جلست أمامي أوَّل مرة، كانت ترتدي فستاناً زهريّاً طويلاً، يربُط حزام عريض خصرها فيزيده تألقاً، تنتعل حذاءً أسود، بكعب عالٍ، وتحمل حقيبة لن تراها إلا في أيدي سيدات الموضة.

بكل ذلك الألق اقتحمت حياتي وحركت فيها كثيراً من المياه الرّاكدة، وهداً في قلبي ذلك الذعرُ من الوحدة التي كنت أظنها أبدية، إنه ذعر يصيب أحدَنا بالجنون، يجعله دائم البحث عن حبيبة مناسبة تخرجه من ظلامه الدائم، في خضم ذلك البحث يتعثر كثيراً وتنكشف سوْءته أمام الجميع.

غير أني كلما جالستها؛ تحركَ في داخلي قلق قديم، بدأ يعشش في قلبي منذ صباي، عندما أحبَّ حاتم ابنة الجيران.. في تصوري الطفولي ذاك كنت أعتقد أن الأمر هيّن، سنذهب إلى والد الفتاة ونخبره أن حاتم مغرمٌ بابنته، وما هي إلا أيام قلائل حتى يتم الزواج، ولا بأس سيتزوجان ويكملان المدرسة، في أثناء ذلك سيبحثان لي عن زوجة مناسبة في ذات الحي.

هذا الحدث فقدته في دهاليز ذاكرتي منذ زمن طويل، لكن الإحساس المر الذي خلفه كنت أتذوق أثره دائماً، ومع عثوري على حاتم من جديد قفزت هذه الذكرى كأرنب يخرج عَجِلاً من قبعة الساحر.

لبس حاتم قميصَه الأحمر المخططَ بالأسود، وارتديت جلابيتي الوحيدة التي تصل إلى منتصف ساقي.

ذهبنا إلى بيت الجيران، طرقنا الباب عِدَّة مرات حتى فتح والد العروس، نظراته المستغربة كانت تخترق وجوهنا فنشيح منه ناحية الأرض.

طالت مدة وقوفنا وهمّ الرجل بغلق الباب، ففتح حاتم فمه أخيراً وقال:

- أنا أحب ابنتك سمسمة وأريد أن أتزوجها في هذا اليوم.

صمتَ الرجل هنيهةً وقد ارتسمت الدهشة السمجة على وجهه، ثم ضحك حتى كاد يسقط على الأرض، تبادلت وحاتم النظرات في استغراب، ما المضحكُ في الأمر؟

هدأ الرجل قليلاً لكنه ظل يشهق، دفعنا بيده نحو الخارج وقال بلهجة ساخرة:

- ليس اليوم؛ ربما مساء غد.

ثم أغلق بابه.

انصرفنا وقد أخذنا كلامه على محمل الجد، أعدنا غسيل ملابسنا وعلقناها على الحبال لتجف، وفي مساء اليوم التالي ارتديناها دون أن تكون مكوية، ثم سرقنا القليل من عطر أمي ووضعنا على وجوهنا بعض البودرة.

انتظرنا الرجل أمام الباب إلى حين عودته من العمل، كان غالباً ما يعود مع هبوط الظلام، وهو ما وفر لنا غطاءً مناسباً لنتفادى رؤيته لملابسنا المكسرة بفعل الغسيل، وفور وصول سيارته وقفنا أمامه.. وما إن نزل حاملاً في يده أكياس الخضراوات، حتى باغته حاتم قائلاً:

- لقد أتينا في الموعد، أريد أن أتزوج سمسمة في هذا اليوم.

هذه المرة تبدل وجه الرجل ورمى الأكياس على الأرض، ثم أمسك حاتم من قميصه وقال في غضب:

- كيف ستتزوجها وليس لديك بيت؟ كيف ستتزوجها وليس لديك مالٌ أو وظيفة أو سيارة؟ أخبرني كيف ستوصلها إلى المدرسة؟!

ثم دفعه بعيداً وأضاف:

- إن عدت إلى هنا مرة أخرى؛ سأخبر والدَك بما تفعل.

شعر حاتم بصدمة كبيرة، استمرت معه لأيام طويلة، قبل أن تسافر عائلة سمسمة إلى ليبيا وتنقطع أخبارهم، بعدها كان للنسيان قول فصل.

عندما انصرفنا من أمام الرجل يومها، ظللت أفكر في حديثه لوقت طويل، ماذا سيقول لأهلنا وقد قصدناه في خير، فحسب علمي لم يكن الزواج ممنوعاً، بل أمر متاح للجميع.

عند المساء سألت والدي كيف لي أن أتزوجَ وليس لدي سيارة أو بيت أو وظيفة أو كثير من المال، ضحك في هدوء، وربت على رأسي وقال:

- هذه الأشياء ستأتي. وعندما تأتي ستكون متهيئاً للزواج، لا تتعجل.

فسألته متى ذلك، فرد بقوله:

- قريبٌ جداً.

حسب نصيحة والدي، بقيت كل هذه السنوات أنتظر الموعدَ الذي قال إنه قريب، وكان كلما مر الوقت؛ تفاقمَ إحساسي بالقلق، فلا يبدو أنني أتحرك نحو الأمام، وكلّ شيء كذلك في هذه البلاد.. وكلما تقدم بك السن سنة؛ تتقدم سن الزواج سنة أيضاً، فلا تلحقها ولا تترك مطاردتها.

ظننت أن هذا الشعورَ سيزولُ عندما أكبر وأقابل فتاة أحلامي،

لكن عندما قابلت هالة تفاقم إلى أبعد حد، أصبحت أخشى أن يسألني أحدهم كيف ستتزوجها وأنت لا تملك بيتاً ولا سيارة ولا وظيفة فخمة ولا مالاً وفيراً.. لأفعل كل ذلك أحتاج إلى كنز ليس في هذه البلاد.

حكيت لها عن حاتم، عن صداقتنا القديمة وأملي في إحيائها من جديد، فأنا أحب أن أخبرها بكل شيء عدا ذلك المتعلق بقلقي من الزواج ومطلوباته، حدثتها عمَّا دار بيني وبين حاتم يوم قررنا اللقاء، أطرقت بنظرها بعيداً ثم عادت وقالت:

- ربما لا يحس تجاهك بذات إحساسك.

عندما رأت الدهشة تعلو وجهي قالت تبرر:

- إن الناس يتغيرون على الدوام، وإن صادف وكنت خارج واحدة من دوامات التغيير هذه، فلن تستطيع دخولها أبداً.

صَمَتَتْ للحظات ثم أضافت:

- لكن ربما ما حدث لم يكن مخططاً له، في المرة الأولى في آتني أنت فررت خوفاً على حياتك، والمرة الثانية ربما كان مشغولاً، من يدري، هاتِفْه غداً لتقطع الشك باليقين.

وعدتها بأني سأفعل، لكني لم أهاتفه بل انتظرت حتى مساء الخامس والعشرين، اليوم الذي لم يكن لي أن أخرج فيه أبداً، فهو لا ينذر بخير، خشيت أن يتكرر ما حدث سابقاً.

في هذا اليوم العجيب حيث بدأت الكثير من الأشياء في التغير من تحت الجذور، كان لا بد من البقاء في البيت.

تجمع المئات في السُوق العربي واتجهوا إلى رِئاسة الجُمهورية لتقديم مذكرة تطالب الحكومة بالتنحي، بدأت المظاهرة عند الواحدة ظهراً، وتحركت الجموع حتى وصلت إلى شارع القصر المؤدي إلى القصر الجُمهوري، إلا أن قوات الأمن فرقتها بسرعة، وسقط على إثر ذلك قتيلٌ.

كانت المظاهرة صغيرة لكنها مؤلمة للنظام، إذ تعطلت البلاد بالكامل هذا اليوم، إلا أنها لم تكن كافية لتسقط نظام حكمه، أمي التي كانت تجلس بقربي وتتابع المظاهرة باهتمام، كانت تهمهم من حين لآخر، أحسست وأنا أتطلع إلى وجهها أنها لم تستطع تحديد المقصد، وهل هؤلاء على صواب أم لا..؟ لكنها اكتفت بالقول دون أن تنظر نحوي: هؤلاء الوحوش لن يسقطوا بالأمر الهين، سيقتلون بلا رحمة.

ما إن هدأت الأحوال قليلاً حتى هاتفت حاتم من جديد، لكن هذه المرّة كان هاتفه مغلقاً، لم أفهم ما يحدث بالضبط، لكني بلا إرادة مني اتصلت بابن عمي أمجد، أخبرته بما حدث وطلبت منه أن يتواصل مع حاتم، ويسأله عن عدم إجابته، وسبب إغلاق هاتفه هذه المرة، فوعدني أن يأتيني بالخبر اليقين صباحَ الغد.

ثم مرَّ أسبوع كامل لم يتصل، خلت أنه نسيني وانشغل بحيواناته الكثيرة، يقطع لها البرسيم كلَّ يوم ويحلب البقرة عند المساء، وظيفته التي يحبُّها وفي ذات الوقت يشن عليها حرباً شعواء بالشّهادات الأكاديمية.

لم أشأ أن ألومه، فضلت المحاولة المتكررة في الاتصال مباشرة بحاتم، والتمتمة بالدعاء علّ الخطوطَ تتشابك فأسمع صفارة الجرس،

لكن لا شيء سوى اعتذار شركة الاتصالات بمكالمة مسجلة، هذا الرَّقْم مغلق الآن، حاول لاحقاً مرة أخرى، فأرمي الهاتف بعيداً.

هاتفني أمجد بعد أسبوعين، كنت قد اعتدت الأمرَ أخيراً، وفكرت أن أنسى فكرة التَّواصل بحاتم، لكن هاتف أمجد المفاجئ أعادني إلى نقطة البداية، رفعت هاتفي كي أشتمه على التأخير، أردت توبيخه بشدة لكنه سبقني بالحديث قائلاً:

- إنَّ حاتم قد استخفى، خرج في موكب تجمع المهنيين الأوَّل يوم الخامس والعشرين ولم يعد إلى البيت حتَّى الآن.

ألجمتني الدهشة وعجزت عن الرَّد، بدا لي الأمر كمزحة سمجة وثقيلة لا يمكنني تقبلها. واصلت صمتي عله يضحك ويخبرني بأنه يمزح، لكنه أعاد على مسمعي ذات الكلام مجدداً:

- لم يعد إلى بيته، وأمه تجوب الشوارعَ بحثاً عنه، حالتها سيئة للغاية ولا تجد من يدعمها. اعتقلوها مرَّة بعد أن اقتحمت قسم الشرطة بحثاً عنه.

ثم ساد المكالمة صمت طويل ولم يشأ أيٌّ منا أن يغلق الهاتف، فواصل حديثه، قال بصوت منزعج:

- ربما يكونوا قد اعتقلوه.. لا أشك في ذلك وإلا أين قد ذهب، لأنَّ أغلب المعتقلين فك قيدهم من أسبوع؛ فلماذا لم يخرج معهم.. في الجامعة لم يكن منظماً بل كان بعيداً عن جو السياسة، لا شيء يجعلهم يبقونه في سجونهم حتى الآن.

ثم انقطع الخط فُجَاءَةً قبل أن يكمل حديثه.

انتبهت إلى أنني سعيت إلى التواصل بحاتم في وقت غير ملائم، وقفت كل الظروف أمام لقائنا.

لا أدري كيف غابت عني ثوريته وأنا أكثر من يجب أن يشهد له بها، يحب اقتحام الأماكن ويفكر في المجهول الذي لا يخطر ببالي وجودُه، هذه مَزِيَّةٌ حَافظَ عليها كل هذه السنوات.

ذلك جعلني أشعر بالقليل من السرور، لكنه سرعان ما تحول إلى ذعر، أين يمكن أن يذهبوا به، لماذا لم يخلوا سبيله حتى الآن، لا أستطيع تخيل حاله الآن داخل الزنزانة، فهي الزنازين! عندما تدخلها بتهمة معاداة النظام، وتثبت عليك هذه التهمة بالدليل القاطع؛ يحاولون كسرك بشتى السبل.

عندما غادرنا الحيّ بكى حاتم الطفل، كان بداخله إحساس عميق أننا لن نلتقي ثانية، جلّ ما أحسست به عند الانقطاع عنه، هو فقدي لحماسته ومؤانسته لخيباتي، لم أبكِ عليه إلا عندما علمت باختفائه، لا أجد سبباً واضحاً لذلك سوى أن أنانيتي قد تلاشت تحت وطأة الذعر الذي اجتاحني، وانجلت غشاوة الأمان التي صنعها الزمن عن عيني.

فمع بعدنا الظاهر؛ ظلّ أمل اللقاء معقوداً، أطمئنُ به نفسي، هذا الأمان الزائف يعطل الحياة أكثر مما يدعمها.

صباحاً ذهبت لأزور والدة حاتم، كان الوصف واضحاً فلم أحتج إلى وقت كثير حتى وجدتني أقف أمامَ الباب، طرقته على استحياء وأنا أشعر بتردد كبير، هذا الباب كان يجب أن أطرقه منذ سنوات، التأخير أفقدني الكثير، وتخيلت لبرهة أن يفتح حاتم الطفل باب البيت، وأجد نفسي قد تحولت إلى طفل صغير، أحمل في يدي الكرة، ولأول

مرة في حياتي سأسأله إن كان يرغب في الذهاب إلى الملعب، ولن أنتظر رده بل سأجره من يده.

فتحت أم حاتم الباب وراحت تنظر نحوي في ريبة، إذ يبدو أنها تتذكر ملامحي لكن ليست متأكدة من هُويتي، بينما كنت أنا ألملم شتات نفسي، وأعود لأستكشف هيأتي الناضجة من جديد.

تلك المرأة تغيرت ملامحها بالكامل، كساها الحزن هيبةً ووقاراً لكنه أكل من عمرها كثيراً، كأنها لم تعرف الفرح يوماً في حياتها، تَذَكَّرَتْني فور ذكري لاسمي وحضنتني دقائقَ وهي تبكي.

أجلستني على أريكة كبيرة داخل الصالة ثم أحضرت لي الماء المثلج.

نظرت حولي أستكشف المكان، الصالة نظيفة ومهذبة لكنها خالية من الحياة، صورة حاتم وهو يرتدي زي التّخرج تتوسط الحائط، تشع من فمه ابتسامة رجل منتصر لكنه قلقٌ بعض الشيء، وهذا ما يجعله يبدو رجلاً عقلانياً وشجاعاً، لن تجد من الغريب أن يخرج شاهراً حنجرته بالهتاف، ليسقط مَن سَيَرْمونَه في سلة العطالة، ويقتسمون الوظائف فيما بينهم من دون أيِّ مؤهلات.

شربت الماء وبقيت صامتاً أراقب حزن أمِّ حاتم يتدفق من وجهها ليملأ المكان، سألتني عن حالي وعن والدتي، اعتذرت إليَّ لأنها لم تأتِ لزيارتنا بعد الرحيل، لقد امتلأت حياتها عملاً وهي أرملة.

أخبَرَتْني بالكثير عن حياتهم بعد أن توفي زوجُها، لم تكن بذلك الاستقرار الذي شهدته حياتي، وصل بهم الحال إلى أن دخلت أم حاتم السجن مرّة بسبب الديون.

كانت تعمل موظفةً في المحلية ثم أحالوها إلى المصلحة العامة من دون أي حقوق بعد أن طالبت الوالي بزيادة الراتب، عندما قابلته على الملأ صارخة في وجهه، ذلك جعلها في مواجهة الديون مباشرة.

اضطر حاتم أن يعمل في التّدريس حتى قبل أن يكمل الجامعة، لكن الديون ظلت تطاردها حتى دخلت السجن ولم تكن لتخرج لولا أحد الخيرين.

قالت ضاحكة من دون أن تزيل عن وجهها مسحة الحزن تلك:

ـ الحكومة التي فصلتني وقطعت عني المصاريف، زجَّت بي في السجن لأنني لم أجد ما أدفعه للدائنين، ربما لذلك خرج ابني ليسقطهم لكن انظر ماذا حدث، لا أجده في أيِّ مكان، بحثت في أقسام الشرطة جميعها ولم أجد له أثراً.

قلت وأنا أنظر إلى صورة حاتم المعلقة على الحائط:

ـ كنت أرغب في لقائه، لكنَّ الظروفَ وقفت حائلاً بيننا، هل أخبرك بذلك؟

قالت أم حاتم:

ـ لم يخبرني بشيءٍ، فأنا لم أعد أعلم الكثير عنه مؤخراً، لم يعد ذلك الصبي الذي لا يستطيع كتمَ أسراره.. له حياته الخاصة التي يرغب في أن تكون سرية، لكنه على أيِّ حال كان يتذكرك، أخبرني مرة بأنه يفتقدك لأنك كنت تدفعه نحو الأمام ومن دونك أصبح فاقدَ الأمل.

فغرت فاهي مندهشاً، إنه ذات الأمر الذي أحسه، أنا فاقد للأمل

والشغف بعيداً عنه، كنت أظن أن الأمرَ مرتبط به هو وحدَه، لكن يبدو أن دوافعنا تنطلق من قوة صداقتنا وليس من شخصينا.

خرجت من عندها بعد ساعة وأنا ممتنٌّ لحديثها رغم مراراته، وعدتها وعداً لم أعرف كيف خرج من فمي، قلت لها إنني ساعيد ابنك مَهما كلفني الأمر.

عندما نطَقْتُ بتلك الكلمات أحسست أنني بلا ثقل وبلا ظل، مجرد هواء عابر، انفرج فمها بابتسامة واسعة فاجتاح قلبي أمل كبير بقدر تلك الابتسامة، والأمل عندما يداعب قلوبنا فإننا نتماهى معه.

طوال طريقي إلى البيت، كنت أطرد عن ذهني فكرة استخفاء حاتم، وأصحح المعلومةَ بقولي: «إنه معتقل»، فالاستخفاء معضلة تثيرُ القلق أكثر، إنه لا يعني التّواري عن الأنظار فقط كما يفعل الواحد منا عندما يلج بيته كل يوم، إنما يعني الموت في ظروف لا يحيط بها الآخرون، وهذا ما يزيد الأمر سوءاً ويؤزم الموقف.

لذلك ظللت أتخيل حاتم داخل أحد «بيوت الأشباح» يُعرَّض للتّعذيب، ويتألم، لكني أعلم كيف أبحث عنه وأين يمكن أن أجده، قررت أن أحضره من هناك، سأبحث عنه داخل فم الأسد.

بينما أرتدي ملابسي الثقيلة لأُبعد الشبهات عني، رحت أفكر في الأمر بجدية، ماذا لو ظللت في زنازينهم كل هذا الوقت، استجابتي السريعة لأسئلتهم جعلتهم يشفقون عليَّ، ويطلقون سراحي نهاية الأمر، لكن لو كنت وقفت في وجوههم بعينين محمرتين، الله أعلم إن كنت سأرى النور مرة أخرى.. هل يا ترى فعل حاتم ذلك؟هل تحداهم؟هل واجههم بغضب لاعناً آباءهم جميعاً؟

ركبت في المقعد خلف السائق، ولا تزال الأفكار تناوش عقلي، بدت لي المسافة التي اعتدتها وخبرتها نحو السوق العربي أقصرَ ممّا يجب، وكأنني أمشي نحو قدري الذي أخشاه، مع كل خطوة تخطوها السيارة إلى الأمام؛ يزدادُ عرقي تدفقاً، احتجت إلى بلع ريقي عِدَّة مرات حتى أشعر بالراحة.

الرجل على يميني يحمل صحيفة سياسية، طالعت العناوين على عجل، وهذا ليس من عادتي، لا أتذكر حتى متى كانت آخر مرة أمسكت فيها صحيفة بيدي، أمعنت النظر في جميع التفاصيل على الصفحة الرئيسية، لكن ليس فيها ما يشير إلى ما يحدث حولنا، الصّحَافة تمارس ضلالَها القديم، لن تتحدث عن مئات المعتقلين ولا الجرحى والمفقودين، بل عن زيارات رأس النظام وحاشيته.

نظرت إلى تاريخ الصحيفة؛ السابع عشر من يناير 2019، مرَّ على استخفاء حاتم شهر كامل، وسنوات طويلة على فِراقنا، وهأنذا اليوم أخرج باحثاً عنه في أكثر الأماكن ظلمةً في العالم، ما كان ذلك ليخطر على بالي يوماً، فمجرد التفكير في المرور من أمام دورية أمنية، والنظر داخل أعين أفرادها، يجعلني أشعر بذعر كبير، ما بالك أن أقف أمامهم وأتهمهم بإخفاء صديقي.

سأقصد مبنى استعلامات جهاز الأمن؛ مع أنّي أظل معرضاً للاعتقال هناك، كان هذا القرار مخيفاً، لكن لا مجال سوى المضي قدماً.

هالني الحشد العسكري في مدخل كبري النيل الأبيض الرابط بين أمدرمان والخرطوم. عشرات العساكر المدججين بالسلاح يقفون متأهبين، كأنهم يستعدون لمواجهة عسكريّة قاضية.

شعرت بالقلق حين شقَّتِ الحافلة طريقها داخل الكبري نحو السوق العربي.

بدوا كأنهم يبحثون عني، مع أنّي لم أخبر أحداً بخطوتي، أخذت نفساً عميقاً وهدّأت روعي، لا أحد يعرف وجهتي، وليس من حقه أن يمنعني، فمركز الاستعلامات معمول خصّيصاً للإجابة عن أسئلة المواطنين، أنا مواطن ومن حقي السؤال عن صديقي المفقود.

سألت الرجل على يميني عله يروي فضولي، فأجابني:

- إنهم يتوقعون موكباً كبيراً اليومَ، دعا تجمع المهنيين لموكب جديد وسط الخرطوم، سيعطلون الحركةَ مجدداً هؤلاءِ الأوغاد.

ثم انكب يقرأُ صحيفته الكاذبة من جديد.

بلغ قلقي أقصى درجة، فكرت في النزول عِدَّة مرات لكني قطعت نصف المسافة، ليس من اللائق أن أفرَّ، عليَّ أن أتحمل مسئوليتي كاملة، إن لم أكن بذات شجاعة حاتم ففي الأقل أنال شرف البحث عنه، وهذه ليست المرة الأولى التي أبحث فيها عنه على أيّ حال.

اتكأت بظهري على المقعد، استعدت بذاكرتي ذلك اليوم، عندما عدنا من المدرسة لم نكن ندري ما حدث بالضبط، لكن والد حاتم ضربه على وجهه بقوة، حتى وقع على الأرض، ثم نهره قائلاً:

- لقد أخبرني الأستاذ فرحان بما فعلت، لقد ظللت تطرق بابهم لأسبوع وتطلب منه أن يزوجك ابنته سمسمة، أوصلت بك الوقاحة إلى هذه الدرجة، يا قليلَ الأدب؟

ثم حاول أن يصفعه مرة أخرى، لكن حاتم تفادى يد والده ثم فرَّ بعيداً.

دخلت بيتي ظاناً أنه سيعود بعد أن يكمل بكاءَه بعيداً كما اعتاد كل مرة، وظللت ساعات أشعر بأسىً شديد.. انتظرت إلى ما بعد الغداء حتى يطرق الباب بعد أن ينسى ما حدث، لكنه لم يأتِ أبداً.

عندما اشتدت حمرة الشَّمس على الجدران سمعنا طرقاً قويّاً على الباب، ظننت أنه حاتم لكنه كان والده المذعور، أمسكني من يدي حتى تألمت وقال:

- أين ذهب حاتم ولم يعد حتى الآن، هيا انطق

تبكّم عليّ الكلام، ولم أعرف ماذا أقول، فأنا لا أدري أين ذهب ولم يخبرني بشيء، فرَّ من أمامنا جميعاً من دون أن يُحَدِّث أحداً.

ظللنا نبحث عنه طول اليوم، اشترك الجميع في البحث، حتى الأستاذ فرحان الذي بدا أن شعور الذنب قد غلبه.. بحثنا في المسجد والمدرسة والمركز الصحي، ثم منازل الحي بالتناوب، لكن لم نجده وكان الظلام قد بدأ يسدل أستاره على المكان فزادني ذعراً.

عندما قنع الجميع، أحسست أنها النهاية، جالت برأسي فكرة أنني لن أرى صديقي مجدداً فصحت في جموع الناس الذين بدأوا يعودون منسحبين إلى بيوتهم بعد أن أنهكهم البحث:

- لماذا لا نبحث في الزرائب؟

صرخ والد حاتم فزعاً:

- وما الذي سيذهب بحاتم إلى هناك؟

تحركنا جميعاً نحو مجرى السيل ونزلنا عبر الزرائب، وقد كنت محقاً، كان حاتم يلتحف الأرض بالقرب من إبراهيم المجنون وقد غطاه ببدلته العسكريّة حتى نام، رفعه والده من يده وأراد صفعه، لكن الأستاذ فرحان أمسكه من يده وحلف عليه أن يخلي سبيله ففعل.

وصلت إلى السُوق العربي عند العاشرة، كان الهواء مكتوماً وعطناً بروائح البول والبالوعات، والشمس التي بدأت تتماسك في طريقها نحو كبد السماء، لم تكن تشبه شمس الشتاء في شيء، أحسستها تترصدني وحدي دون الناس، وسال العرق عبر جسدي مختلطاً بالخوف.

سرت عبر الأزقة الضيقة المحتشدة بالمتشردين وبعض رجال الأمن المتخفين، مشيت حتى وصلت إلى مبنى الاستعلامات.

ولوجُ الباب الضخم للمبنى لم يكن أمراً هيِّناً، يحتاج إلى قوة ودافع كبيرين، بحجم ذلك الدافع الذي جعل حاتم يقف أمامهم بقوة، ليكون مصيره الدخول إلى سجونهم وتلقي الصفعات في ثباتٍ وصمت، وبما أنني لم أمتلك ذلك الدافع قط، فقد دخلت كمن يطير في الحلم، يحس أن ما يفعله غير منطقي، لكنه يبدو حقيقياً.

مشيت عبر الصالة حتى وصلت إلى الشباك، مددت رأسي فطالعني رجل الأمن الجالس خلف المكتب بملابسه المدنية العجيبة، تلاقت أعيننا للحظات فأرخيت نظري.

ألقيت عليه السلام بصوت خافت متقمصاً دورَ المواطن الصالح، الذي لا يفترض أن يدخل إلى مثل هذه الأماكن لولا الظروف القاهرة، وإنما يجب أن يكون في السوق ليتبضع، أو في المسجد ليصلي

ركعات لله تعالى، ويرفع يديه بعدها داعياً بصوت مرتفع حتى لا يظن أحد أنه يدعو بهلاك الحاكم.

غطت رأسي سَحابة غضب مباغتة، لكني لم أستطع رفع رأسي، إذ لم تكن لديَّ القدرة على التجاسر أمام هؤلاء الرجال الخطرين الشرسين.

أكثر ما يقلقني فيهم زيُّهم المدني الكلاسيكي بجيوبه الكثيرة، يذكرني بصدمتي الأولى عندما رأيتهم يضربون شاباً على جانب الطريق، حين مربتِ الحافلة التي أقلتني بالقرب منهم من دون أن ينطق أحدٌ بكلمة، لم تكن هُويتهم مكتوبة على جباههم لكن الناس عرفوهم وسكتوا عنهم.

تلك كانت المرَّة الأولى التي عرفت فيها أنه يمكن لرجل بلباس مدني، أن يضرب شخصاً في الشارع من دون أن يلاحقه القانون، فصرت أمشي في الشارع أحسب كلَّ من يقابلني مرتدياً ذلك الزي رجلَ أمن، يمكن أن يضربني في أيِّ لحظة.

نجحت خطتهم في نشر الذعر بين الناس، هكذا كان يسيطر جهازُ الأمن على البلد.

سألني الرجل من خلف الشّباك المضاد للرصاص عن حاجتي فأجبته بأنني أبحث عن مفقود، سألني عن اسمه فتلوت عليه اسم حاتم رباعياً، فتح الدفتر الموضوع أمامه ثم راح يبحث باهتمام.

بعد دقائق فتح جهاز الحاسوب على يمينه وتابع بحثه الهميم خلاله، توقف فُجَاءَةً ثم تأفف في ضجر وقال:

- هذا الشخص ليس معتقلاً لدينا، فنحن هنا ندوّنُ أسماء كل معتقلي المظاهرات.

صَمَتَ هنيهةً ثم سألني إن كنت قد بحثت عن حاتم في أقسام الشّرطة أو المستشفيات فأجبته نافياً، أغلق الدفتر أمامه وقال:

- إذن، اذهب وابحث عن صاحبك في مكان آخر.. نحن لم نعتقله.

هنا تكثفت سَحابة الغضب فوق رأسي ثم بدأت الهطول، رفعت عيني ناظراً إليه متحدياً الخوف الذي كان يحكم إغلاق فمي وصرخت في وجهه دون أن أشعر:

- وهل مجرد هذه الأوراق التي بحثت فيها، ستقنعني أنه غير موجود لديكم؟

استراح بظهره على الكرسي، ضحك في خبث ثم قال:

- ولمَ سندسه عنك ونتحمل نفقات إضافية؟! كل المعتقلين أخلينا سبيلهم حتى لا يكونوا عبئاً على الميزانية

قلت وأنا أنسحب من أمامه خارجاً:

- كل موارد الدولة تحت تصرفكم، عن أيّ ميزانية تتحدث؟

قلت ذلك وأنا لا أدري إن سمعني بحق أم لا، لكني حَمِدْتُ الله كثيراً أنني استطعت تجاوز الباب دون أن يوقفني أحد، كان يمكن ببساطة أن أفقدَ حريتي لمجرد أنني انفعلت في وجه واحد منهم، وهذه ليست مبالغة؛ تاريخهم الأسود يسبقهم في كلّ مكان.

إلى أين ذهب حاتم إن لم يكن في زنازين الأمن، وما مصلحتهم

في إخفائه إن كان لديهم؟ كل المعتقلين عثر أهلهم عليهم هنا إلا حاتم، لماذا هو بالذات.. يا الله، هل يكون معتقلاً لدى الشرطة؟ لماذا لم يتصلوا بنا ولماذا لم يقدموه إلى محاكمة.. ؟هذه الأفكار ظلت تنهش راسي المسكين وأنا أسير عائداً إلى السُوق العربي.

مع وصولي إلى شارع القصر نظرت إلى ساعة الهاتف، كانت تشير إلى الواحدة ظهراً، نظرت حولي في توجس أراقب المارة، كانوا يبادلونني ذات النظرات الفزعة، ربما هم مثلي يخشون قيامَ المظاهرة قبل أن يصلوا إلى بيوتهم.

نظرت إلى الساعة مجدداً فوجدتها قد تقدمت دقيقة كاملة، شعرت ببعض الراحة، لن تبدأ المظاهرة من شارع القصر إذن، لا بد أنَّها بدأت في مكان آخر داخلَ العاصمة، في أسوأ الافتراضات في موقف جاكسون.

تقدمت في المسير مطمئناً، حانت مني التفاتة نحو الخلف، فرأيت فتاة قصيرة ترتدي عباءةً سوداء وحذاءً رياضيّاً تخرج من تحت شجرة النيم العملاقة، ثم تطلق زغرودة عالية ومجلجلة شعرت معها أنني أجوف من الداخل، وللحظات فقدت فيها السمع، أصبحت أراقب بعيني ما يحدث من دون أن تقوى قدماي على المشي.

سرعان ما خرج مجموعة من الشباب من كل الأزقة والمحالِّ والمطاعم على جنبات الطريق، كأنهم يخرجون من فُوهة بركان.. تجمعوا عند نقطة واحدة ثم شرعوا في هتاف قوي أعاد إليَّ سمعي بسرعة.

هذا المشهد لم أعهده من قبل، لم تكن لي الجرأة يوماً أن أكون جزءاً من موقف مماثل، قضيت حياتي الماضية وأنا منحاز إلى الظل فقط، لا أخرج منه ولا يكف عن ستر جبني، لذلك احتجت إلى وقت أطول حتى أقنع قدمي أنها غير مغروسة داخل الأرض، ولأقنع أنفاسي المتصاعدة أنني لم أركض بعد، ولأقنع قلبي أنني لا أسقط من شاهق في الظلام الدامس.

تحركت بصعوبة لبضع خطوات نحو الأمام، ووجدتني فُجَاءَةً وسطَ الموكب وحولي الناس يهتفون، وبلا حول مني جرفوني في طريقهم، كنت حينها أشبه بنقطة في النيل، تنحدر من الأعلى نحو الأسفل، نحو المصب الذي تنتظرنا فيه سياط الأمن.

كان المتظاهرون يحيطون بي كدرع متين، في تلك اللحظة أحسست بالأمان يدب داخلي، إنه أشبه بإحساس الطفل في رحم أمه، مَهما كانت الضربات قاسية لن أشعر بها، مع أنهم عُزَّل ولا يملكون سوى حناجرهم.

استعدت بعضاً من أنفاسي، ثم رحت أستمع للهتافات في متعة، وبحركة بطيئة رفعت يدي لأعلى قليلاً ثم هتفت في صوت خافت ضاع وسطَ ضوضاء الحشد، ثم رفعت صوتي مجدداً وهتفت: (سلمية.. سلمية.. ضدّ الحرامية). ازداد إحساسي بالأمان فصدحت بأعلى صوتي وهتفت.

لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى ظهرت سيارات الدفع الرّباعي قادمة من جهة القصر، تحمل على ظهورها العشرات من رجال الأمن المدججين بالأسلحة.

عاد الخوف يدب في أوصالي من جديد، فانسحبت من الموكب إلى الرصيف ثم أخذت أتراجع.

سمعت صوت رصاص متلاحق وقنابل صوتية وعبوات الغاز المسيل للدموع، أحسست أني إن لم أخرج من هنا سأموت لا شك، نظرت حولي فوجدت باباً مفتوحاً لأحد المباني العالية، دخلت لأختبئ خلفه، فرأيت سلماً صاعداً نحو الأعلى فصعدت في صعوبة كأنني مصاب بخشونة الركب، ومع وصولي إلى سطح المبنى كانت قواي قد خارت تماماً، ورحت ألهث في عنف، كاد قلبي يخرج من مكانه.

ظللت أراقب الحدثَ من أعلى، رجال الأمن المدربون يصطادون المتظاهرين كالفرائس ويلقون بهم داخل صناديق السَّيارات.

لم يكن ردُّ فعل المتظاهرين عنيفاً، وقف بعضهم للضرب والاعتقال في حين تقهقر بعضهم الآخر في حماسةٍ، إذنْ هذا ما حدث لحاتم في موكبه الأوَّل بالضبط، يا له من شجاع!

لم يفر مثلما فعلت بل وقف ثابتاً. أتخيله وسط تلك المجموعة يتلقى ظهره السّياط ربع ساعة، قبل أن تكل أيدي العساكر فيلقوا به داخل العربة، ثم ينطلقون به مبتعدين لا ترى منهم سوى غبار سياراتهم.

بقيت على سطح المبنى حتى مغيب الشمس، نزلت وقد عادت الحياة إلى طبيعتها كأن شيئاً لم يحدث هنا قبل ساعات.. واصلت مسيري نحو السوق العربي أهتدي إلى الطريق بأضواء السيارات وأعمدة الإنارة الشاحبة، خارت قواي تماماً ولم أشعر بالراحة إلا عندما أسندت ظهري إلى مقعد الحافلة وأنا عائد إلى البيت.

عاد أمجد من جديد ليقاسمني الغرفة ويعيد إليها بعض الأُنس، ترك حيواناته وزراعته لتوثيق بعض الشهادات. خرجنا في ذات يوم وصوله عند المساء لنشرب القهوة لدى البائعة الإثيوبية التي وضعت أمامنا فنجانين ساخنين، وعلى ضوء أعمدة الإنارة الباهتة بدت القهوة داخلهما كمحلول نفيس.

بدأنا احتساءَ القهوة وقد ألجم الصمت أفواهنا، لولا طعم القهوة اللذيذ وأصوات احتكاك إطارات السيارات مع الأرض لظننت أنني متُّ.

نظرت إلى أمجد ففهمت أنه يخشى مفاتحتي في موضوع حاتم، لذلك أشعلت شرارة الحديث بنفسي، قلت «عندما كنت وسط الموكب شعرت بالذعر، وزاد شعوري ذاك عندما رأيت رجال الأمن وهم يضربون المتظاهرين على ظهورهم كأنهم ينتقمون، لقد ذُعِرت لأنني لم أكن عنيفاً يوماً ولم أعش حياة عنيفة، إن استثنينا توبيخ الأهل الشديد.حاتم نفسه لم يكن عنيفاً، لا أدري كيف وقف أمام أولئك الرجال بيدين عاريتين ولم يفر، بل إنه من دون غيره لا يعترفون بمكانه، هل تعلم أنه لطيف إلى حدٍّ بعيد، عندما شنق أطفال الحي كلباً تائهاً عند الجسر المهدم وسط الخور، لفوا عنقه بحبل مربوط بماسورة بارزة من الجسر ثم دفعوه نحو الهاوية.. ظل متدلياً من الأعلى لكن مخالبه الخلفية كانت ترتكز على شق صغير في حائط الجسر، فكان بين الفينة والأخرى يدفع نفسه لأعلى ليستنشق بعض الهواء، كنت وحاتم نراقب المشهد من بعيد، نظرت إليه فرأيته يتألم لحال الكلب».

كان أمجد لا يزال ساهماً، لكني كنت أعلم أنه ينصت جيداً لما أقول فتابعت «ظللنا بعيدين حتى سئم الأطفال وانصرفوا، فجرى حاتم

نحو الكلب يحاول أن ينجده.. في الحقيقة لم يكن الأمر بتلك السهولة، فالكلب بعيدٌ عن الأرض وبعيد عن الجسر.. حاول أن يقطع الحبل بأسنانه لكنه لم يستطع، ثم حاول أن يجذبه، قلت له:

- ربما يكون جذبه فكرة سيئة.

أجابني وهو يحاول جذب الكلب:

- لن تكونَ بذلك السوء، سيختنق لثوانٍ قليلة قبل أن يصل إلينا.

أمسكنا الحبل ثم جذبناه إلى أعلى، انخلع مخلب الكلب من شق الحائط وأصبح معلقاً في الهواء، وطبعاً عجزنا عن إيصاله إلى بر الأمان، أصبح أثقل مما نحتمل فأفلتناه، فشنقه الحبل فمات.. ظللت أحاول إقناعه أننا لم نقتل ذلك الكلب، بل قتله الأطفال الذين علقوه على الجسر، لكنه لم يقتنع، ظل ملازماً بيته أياماً، أراه أحياناً يذهب إلى صلاة الجُمُعة، أظنه كان يحاول التّخلص من ذنبه، لكن قلبه طيب، بعد شهر نسي كل ما حدث وعاد يلعب معي من جديد.

أنهيت كلامي مع آخر رشفة من الفنجان، وأردتُ أن أطلب فنجاناً آخر؛ لكن الوقت كان قد تأخر عن ذلك.. عقلي خفيف للغاية، يمكن لكوب إضافي أن يمنعني النوم لليلتين متعاقبتين.

نظرت إلى أمجد فوجدته ما زال غارقاً مع أفكاره، يطالع في البعيد شيئاً لا يمكن لغيره أن يراه، وعندما لاحظ امتعاضي من تصرفه اعتدل في جلسته، أخذ نفساً عميقاً وقال في هدوء:

- تفقد أنظمة الحكم شرعيتها عندما يتفق الجميع على ذلك.. وإن

تمسكت بالحكم، فالشعب هو مصدرُ السلطة الفعليُّ وهو الذي يقرر.

حمل فنجانه في يده وأخذ يطالعه ثم تابع حديثه:

- عندما يقابلك المواطن المريضُ في المستشفى لا يجد علاجاً لدائه، فإنه يصب جامَ غضبه على السلطة التي أهملت صحته، مفضلة عليه تمويل أنشطتها الأمنية، وعندما يقابلك المعلم في الحافلة فيحدثك بصوت خافت متردد عن تدهور التعليم الحكومي، واستثمار رجال الحكومة في التعليم الخاص بصورة فجة، ثم يقابلك العامل والطبيب والموظف، وكلٌّ يشتكي على طريقته، قد تبدو وجهات نظرهم مختلِفة ومشكلاتهم مختلِفة، غير أن غضبهم واحد على الحكومة، وهذا ما يجعل النظام يفقد شرعيته، لكن ليس كل هؤلاء من يصنع الثورة.

قال أمجد ذلك ومال نحوي مكملاً حديثه بصوت أشبه بالهمس:

- الثورة فعل صعب، لا يطيقه أيُّ أحد، تحتاج إلى النفس الطويل، وهذا النفس لا تملكه إلا كتلة بسيطة من الشباب عندما يصلون إلى النقطة التي تنعدم فيها المرونة، فينقطع الحبل المطاط، لا مجال للعودة ولا مجال لأي مشاعر أخرى، يخرجون إلى الشارع فيسقطون نظام الحكم الفاقد لشرعيته في عيون أهل البلد.. أنت لا تعرف عن حاتم سوى ذكريات قديمة، لكن لا شك أن هذا الزمن القاسي الذي عاش فيه، قد جعل منه شخصاً آخرَ أقل لطافة.

لم أجبه، لقد كان كلامه مقنعاً بالقدر الكافي.

مع التغيير الجيِّد الذي يصنعه أمجد في حياتي؛ فإنه لم يكن يملك كلَّ ما أريد، لذلك كنت أفرُّ منه أحياناً لأقابل هالة؛ لأنَّ لديها شيئاً

أحتاجُ إليه، ولن أجده في جلسات أمجد الممتلئة بالسّياسة والشهادات العلمية.

إنها تملك قدرةَ أنْ تجعل العالم أكثر هدوءاً ورحابة، يكفيني فقط أن تنظر نحوي في هدوء حتى تعود كل أجزاء جسدي إلى حالة السّكون الأولى، لتبدأ العمل على مهل من دون تعب.

لم أخبرها بما حدث معي إلا عندما أخبرتني بمغامراتها خلال الأيام الماضية. خشيت أن أفطر قلبها الطيب، لكنها تحمست عندما قصصت عليها الحكاية، فرفعت طَرَفَ فستانها لتريني قدمها، كانت الكدمة ظاهرة على كعب رجلها كبقعة دكناء على حائط ناصع اللون.

نالت هذه العلامة عندما كانت تجري في شوارع الحارة فراراً من عربات الدفع الرَّباعي. أطلقوا عليها عبوةَ الغاز المسيل من بعيد، كأنهم يقصدون إصابتها في الرأس، لكنَّ القدر جاء لطيفاً؛ فأصابتها في كعب رجلها.

لم أستغرب من استهداف رجال الأمن للفتيات. لقد كان هذا من الأمور المعتادة، لم يكونوا يفرقون بين امرأة ورجل، أو كبير وصغير، لكني استغربت تلك الروح التي سيطرت على هالة، وجعلتها تخرج ذلك اليوم وسط الحشود في محطة الرومي والشَّوارع المحيطة.

أعرفها حقَّ المعرفة، حتى وقت قريب لم تكن تدري مَن نائب الرئيس أو ما اسم الرئيس الثلاثي، لكنها الآن باتت تعرف كل شيء. حدثتني عن أخبار كنت أجهلها تماماً، وعن شهداء سقطوا بوابل الرصاص.

شعرت أنني أتعرَّف إليها من جديد، وفي جلستها الأنيقة على

الكرسي في المقهى، شعرت أنني أنظر إلى فتاة أجمل من أيّ وقت رأيتها فيه، وكانت القهوة التي شربناها معاً نخباً لسهم الحب الذي أصاب قلبي تلك اللحظة، وجعلني أضع خططي لأظفر بقلبها الشُجاع.

في المساء عندما وضعت رأسي على المِخدَّة بعد أن أخمدت الإضاءة، رحت أفكر في حالتي التي لا تشبه حالة غيري، لم تتملكني الروح التي تملكت هالة ولا حاتم، ربما لأني من أصحاب الجلد الثخين، الذي يتأقلم ويتماهى مَهما كثر عليه من الضرب.

نمت فرأيت حاتم الصغير وهو يحاول أن ينقذ الكلب من جديد، وقفت بالقرب منه وقلت ضاحكاً: هل أنت مصر أن تنقذ الكلب الأجرب؟

نظر نحوي وضحك وقال:

- هل ترى.. ؟هذا هو الفرق بيني وبينك، أنت تراه مجرد كلب أجرب، وأنا أراه روحاً يجب أن تعيش.

فتحت عيني أنظر نحو ظلام الغرفة، فكرت أننا ذلك اليوم لو كان لنا نفس طويل لأنقذنا الكلب، ربما مات الكلب بسببي لأن قبضتي كانت رخوة.

هذا ما يحدث الآن بالضبط، قبضتي رخوة، فلا تقوى على لكم النظام في وجهه، ولا تستطيع أن تحكم قبضتها في الحبل لتنقذ البلد مع البقية، إذن ليس للموضوع عَلاقة باللطافة والطيبة، إنه متعلق بالروح التي في الجسد، هذا التفكير جعل دموعي تنحدر عبر جانبي وجهي، أحتاج حقاً إلى بدَاءَة جديدة.

أصبح حاتم لا يغيب عن خيالي أبداً، بملامحه الطفولية تلك يغزو أحلامي كلَّ ليلة، يأخذني في رحلة عبر العمر الطويل الذي عشته وصداقتنا الطفولية القصيرة.

أظل مصدقاً كل لحظة نقضيها معاً، قبل أن أفتح عيني لأكتشف أنني عالق في عالم لا أرغب فيه، كتب عليَّ أن أكون سعيداً وأنا مغمض العينين فقط.

أمّ حاتم لا تغيب عن بالي كثيراً، لذلك عندما استيقظت ذلك الصباح رأيت طيفها يعبر أمامي، سمعت نحيبها الخفيض الذي لا يسمعه سوى القلب لأنه نابعٌ من القلب.

تذكرت آخر مرة زرتها فيها، بدت لي بعيدة، ربما قبل شهر، ولا شك أنها تشعر بالوحدة فأقاربها لا يزورونها كثيراً، وترفض أن تنتقل للعيش مع أحد آخر، تريد أن تظل في بيتها حتى يعود ابنها.

طلبت من أمجد وهالة مرافقتي لزيارتها فوافقا، وجود عدة أشخاص حولها يقاسمونها ذات الألم، ربما يخفف عنها قليلاً، ويجعل قلبها مفعماً بالأمل ولو قليلاً، اشترينا القليل من الموادّ الضرورية وحملناها إليها، وكعادتها استقبلتنا باكية، وجهها زاد شحوباً وأصبح بيتها أكثر وحشةً، لم يكن بذات الألق الذي رأيته فيه المرّة الماضية، الغبار يملأ الجدران والأسطح. الصور التي كانت على جدار الصالة استخفت. الأَسِرَّة لم تكن مرتبة، يبدو أنها قضت الأيام الماضية منغمسة في حزنها لا تبرح مكانها.

نظفنا ثلاثتنا المكانَ، ورتبناه كما كانت تفعل في أيامها السابقة، بحثت عن الصور داخل الأدراج حتى وجدتها ثم علقتها في مكانها.

عاد كل شيء إلى سابق عهده، إلا الروح التي كانت تسود البيت، لا أود الجزم بأنها غادرت إلى الأبد.

لم يكن لديها ما تكرمنا به سوى القهوة، طالبناها فقط بالقليل من الماء، لكنها أصرت على إعداد القهوة في طقسها المعروف والمرغوب، ولا أدري إن كانت قادرة على الفصل بين الأمرين حقاً، وهو ما لم ألتمسه من هيئة البيت عندما رأيته هذه المرة.

أحْضَرَت الموقد وأشْعَلَت الفحم وغلت عليه الماء، حمَّصت البن الحبشي ثم سحنته، عبقت رائحة البن المكان فأصابتنا عدوى السَّعادة، لم يعد ينقصنا سوى عودة الابتسامة إلى وجه أمّ حاتم.

سألتني عن المواكب والمظاهرات؛ كيف تسير، رأيت داخل عينيها رجاءً وأملاً، فأجبتها في يأس:

- خلال شهر فبراير خرجت العديد من المواكب، لكن لم يكن مقدراً لأي منها أن يصل إلى وِجهته، إذ تتلقفها أجهزة الأمن بسرعة، وإذا حدث وتمدد الموكب في حجمه وزمنه فلا شك سيسقط شهيد أو شهيدان.

بدا الضيق ظاهراً على وجهها فندمت على ما قلت، فالنفق الذي تسير فيه الثورة لا نرى آخره، ولا شك أن ابنها يقف في نهاية النفق منتظراً عدالة الثورة لتخرجه، نظر إليَّ أمجد بنظرات حادة وقال موجهاً حديثه إلى أمّ حاتم:

- في نظري؛ هذه المواكب حققت أهدافها بالكامل، فليس الغرض الأساسي أن تصل إلى مبنى البرلمان أو القصر الجُمهوري بقدر ما

تهدف إلى إجلاس الرئيس وأنصاره على الصفيح السَّاخن.

قلت منزعجاً وقد فقدت السيطرة:

- ثم ماذا بعدُ، حتى الآن لا أرى أيَّ انفراج.

أجابتني هالة في هدوئها المعتاد:

- الثورة أفعال تراكمية، وكل يوم يمضي يزداد الناس إيماناً بالثورة والتغيير، لا شك أن المنعطف الحاد الذي نرغب فيه، سيأتي يوماً ما، وستنقلب عربة السُّلطة.

عمَّ صمت بسيط المكان، لم نعد نسمع سوى طقطقة الفحم الملتهب وغليان الماء داخل الإناء، ثم قلت موجهاً حديثي إلى أم حاتم:

- لقد سألت عنه لدى جهاز الأمن، لكنَّهم أنكروا معرفتهم به.

أجابتني والعبرة تخنقها:

- أنا بحثت عنه في جميع أقسام الشرطة، كلهم لم يروه، لا أدري.. أين يمكن أن يكون إن لم يكن لديهم؟

ثم وضعت يدها على وجهها وراحت تبكي.

أحسست كأنني السبب في استخفاء حاتم، شعرت بالعجز وقلة الحيلة، ماذا في يدي يمكن أن أقدمه؟

لقد عجزت أن أجرها من كهفها الحزين إلى رحابة العالم، كنت كلما فتحت فمي لأتكلم زادت حدة حزنها درجة، فآثرت أن أظل صامتاً حتى نخرج.

جوقة أبريل

لوَّح لي أمجد مودعاً من خلف شباك الحافلة السَّفرية، ليعود مجدداً إلى القرية بعد أن أكمل توثيق الشهادة وشارك في موكبين، عاد مرة أخرى إلى حياته الريفيَّة المحببة وتركني أصارع غابة الإسمنت وحدي، حيث لا هواء نقيّاً، يدخل إلى الصدر ولا صُحبة نقية.

ركبت الحافلة من أمام بوابة الميناء البري، وجلست في مكاني المفضل، قرب الشباك، لعلني أرى ما يمكن أن يسر بالي، لكن لا شيء سوى الوجوه العابسة والهامات المنحنية نحو الأرض، أناس أرهقتهم الحياة، أو أرهقوها فانتقمت منهم، لا أدري.

لافتات مكررة وكلها تقليد لأسماء تجارية ناجحة، محالُّ عصير المانجو كلها تحمل ذات الاسم، ملك المانجو وأمير المانجو، أيضاً قرأت لافتة تحمل اسم ملك ملوك وأمراء المانجو، لا تجديد ولا تغيير. كلُّ شيء في الخرطوم يمكن التنبؤ به قبل حدوثه، الناس يتداولون ذات الأفكار لسنوات، يمشون بطريقة واحدة، يتحدثون بنبرة واحدة، لا مُستحدَث يطرأ على شخصياتهم ولا على ما يقولونه أو يفعلونه، ليصبح التجديد ضرباً من الخبل والمغامرة.

نزلت أمام مستشفى أمدرمان بالضبط، وجهتي الأولى التي لم يخطر ببالي غيرها، وواحدة من أكثر الأماكن قسوةً ووحشة في هذه البلاد بعد معتقلات الأمن، فإذا سلمنا أن حاتم ليس في هذه المعتقلات، فلا سبيل إلا البحث في المستشفيات المكتظة بالمفقودين وفاقدي الوعي.

انتظرت ساعةً كاملة داخل غرفة السجلات، قبل أن يدخل عليَّ موظف شاب ذو وجه غاضب، تبدو ملابسه المتسخة كجلد على جسده النحيل، تفوح منه رائحة المستشفيات التي أكرهها.

جلس خلف مكتبه في هدوء مفتعل، سألني عن مشكلتي فأخبرته بأنني أبحث عن مفقود.

زمَّ شفتيه، وأخذ نفساً عميقاً وزفره بمهل، ثم راح بكل ما أوتي من يأس، يبحث داخل دفاتره المغبرة، والتي يبدو أنهم لم يدونوا عليها شيئاً في القريب.

استمر في بحثه دقائق، رفع رأسه ناظراً نحوي كأنه لا يراني وقال:

- لا يوجد أحدٌ بهذا الاسم داخل عنابرنا، ولم يدخل أحد بهذا الاسم إلى المستشفى في الشهور القليلة الماضية.

تبادلنا النظرات الصامتة للحظات، فتبين لي أنَّ تينك العينين ليستا غاضبتين بقدرما هما حزينتان وآسفتان، هزَّ رأسه عِدَّة مرات فتأكدت انه يواسي حزني، أردت أن أشكره على وقته، وقبل ان أنطق بكلمة سمعت صوت إطلاق نار كثيف بالخارج.

كان الصوت قويّاً، كأن أذني هي فُوهة البندقية، وهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوتَ إطلاق النار من هذا القرب.

انتفضت واقفاً وكذلك فعل الموظف الذي اكتسى وجهه قلق غاضب، ظللنا واقفين خَمْس دقائق، كانت الرصاصات تُطْلَق خلالها؛ الواحدة تلو الأخرى، لقد أكمل مطلق النار هذا؛ كل مخزون البلاد من الذخيرة.

جالت بخاطري أفكار كثيرة ساعتها، تخيلت رجلاً معتوهاً يحمل بندقية كلاشنكوف الروسيَّة ويطلق النار على المرضى، وعندما يفرغ منهم لا شك سيبحث داخل المكاتب، انقبض قلبي حتى شعرت أن صدري يكاد يتقلص.

في تلك اللحظة اقتحم أحدُ العمال المكتب وهو يلهث، قال من دون أن نسأله:

- إن قواتِ الأمن تطارد المتظاهرين إلى داخل حرم المستشفى، وقد أطلقوا عبوة مسيلة للدموع داخل عنبر الحوادث، ويعتقلون كل من يقع في نظرهم حتى المرضى والعمال. ثمَّ خرج يجري.

رصاص داخلَ حرم المستشفى؟ جلست على الكرسي مذعوراً، أدركت حجم الكارثة والانحطاط الذي وصل إليه هؤلاءِ الناس.

بعد ذلك سمعنا وقع أقدام العساكر، وحديثهم الساخط داخل الممر أمامَ باب المكتب، لا بدَّ أنَّهم يبحثون عن المتظاهرين المختبئين، بدأ العرق ينزل عبر جبهتي المذعورة.

يا للبؤس، لقد أخفقوا في اعتقالي من قبل عندما شاركت في موكب

شارع القصر، وهاهم الآن يعتقلونني بكل سهولة؛ لقمة سائغة من دون أن أشارك في المظاهرة، لن يصدقوا أنني هنا أبحث عن مفقود، لن يتركوا لي فرصة للتسويغ، ما إن يروني حتى يبدأوا في الركل والسّب.

نهض الموظف الشاب بسرعة، وارتدى معطفاً طبياً وعلق السماعة على كتفه، فتح باب الخِزانة القديمة في ركن المكتب وطلب مني أن أختبئ داخلها، شعرت أن قلبي قد انشق إلى نصفين، هل الأمر يحتاج إلى كل هذا التّمويه حقاً، وسمعت هاتفاً يهتف داخل عقلي يقول؛ هذه النهاية لا شك، كل تلك الرصاصات التي أُطلقت لا شك قد استقرت في صدورٍ حية، ورصاصتك تنتظرك.

هل يمكن أن يكونوا قد أطلقوها في صدر الهواءِ الرّحب؟

نهضت وقدماي بالكاد تحملانني، دخلت إلى الخِزانة بسرعة ثم أغلقت الباب، خرج الموظف الشاب الذي بدا كطبيب امتياز مبتدئ، وأغلق الباب خلفه.

المكان داخل الخِزانة مظلم تماماً، فارتاحت عيناي قليلاً، لكن أذني ما زالت مذعورة؛ سمعت كلَّ ما جادت به قريحة البشر من الشتائم، ثم بضع رصاصات في وقت متفاوت، ثم ضرب سياط وركل.

بقيت داخل الخِزانة ثلاثَ ساعات، كانت أطول ثلاث ساعات عشت فيها منذ أن عرفت الساعة، كانت محتشدة بالأفكار والظنون والأشواق، ثلاث ساعات فقط فعلت بي كل ذلك، هل يحتملها حاتم كلها الآن في سجنه المجهول مستشفىً كان أم زنزانة؟

عاد الموظف من جديد وفتح باب الغرفة فحبست أنفاسي، ولم

أتنفس الصُّعَداءَ إلا عندما سمعت صوته يناديني لأخرج، أمسكني من يدي ثم ذهب بي إلى الباحة الخلفية، وطلب مني أن أقفز من السُّور.

قبل أن أتسلق السور سألته:

- ماذا حدث؟

أجابني في حزن:

- هناك ثلاثة استشهدُوا اليومَ، والكثير الكثير من الجرحى.

رأيت على وجهه إحباطاً يورث الكآبة، قفزت من السُّور ثم جريت مبتعداً.

انعدمت المواصلات والسيارات تماماً من الشارع الرئيس، ومع اقتراب أفولِ الشَّمس بدا لي من المستحيل الوصول إلى البيت قبل منتصف الليل، لكني رأيت على حين التفاتة سيارة صغيرة وقديمة تلوحُ من بعيد، انتظرتها حتى اقتربت فرفعت يدي، توقف السائق العجوز وطلب مني الصعود، وكان من حسن حظي أنه سيتوقف قريباً من شارع بيتنا.

نظر إليَّ السائق العجوز؛ فرأى الإعياء على وجهي قد استبد بي فسألني:

- هل كنت في مظاهرةِ اليومِ؟

كنت أودُّ أن أنفي، لكني لم أستطع.. شعرت بتعب بالغ، اتكأت بظهري على الكرسي فشعرت ببعض الراحة، عاد وسألني مجدداً:

- إلامَ ستواصلون التظاهر وإغلاق الطرق؟ لقد سئمنا ذلك

مجدداً لم أجبه، فكرت أن أطلب منه إنزالي هنا، حتى أتخلص من نبرة صوته المزعجة، لكني عجزت عن ذلك أيضاً، وبقيت أحسب المسافة متعجلاً الوصول إلى البيت. لا شك سأنام كالقتيل، ولن أشعر بالأمان التامّ، إلا وأنا أدلف داخل البيت وأحكم إغلاق بابه، لافظاً خلفي كلَّ ما قابلني اليوم من ذعر ومن موت.

بعد مدَّة سكت السَّائق العجوز عن طرح الأسئلة، التفت إليه فرأيت على وجهه ملامحَ الانزعاج، لا أدري إن كان من سوء الوضع أم من تجاهلي له، لكن وجهي أشرق تماماً عندما رأيت انحناءة الشَّارع الإسفلتي الذي يقسم حيّنا إلى قسمين؛ تلوح في الأفق.

دخلت عبر الشارع أترنح كسكير عجوز، يمتد ظلي أمامي مبتعداً لأمتار كأنه يفرُّ مني، الفزع لا يزال يملأ جنبات قلبي. بالكاد أشعر بأرجلي أجرها على الأرض جرّاً.

مددت نظري إلى الأمام، فرأيت أشباحاً تتحرك في البعيد، كلما اقتربت منهم كنت أتبين ملامحَهم الصاخبة، مجموعة من المراهقين يحملون الإطارات وزجاجاتِ الوقود يقطعون الشارع، عندما رأوني أقترِب، توقفوا في حذر يراقبون خُطواتي.

ربما خالوني رجلَ أمن. لا ألومهم على ذلك في بلد يطمح كلُّ باحث فيها عن المال، أن يحصل على هذه الوظيفة، وما أكثر الباحثين عن المال!

عندما دخلت بينهم تماماً تحمست لهتافاتهم و همساتهم، أحسست بالحياة تدب في جسدي من جديد، شعلة من النشاط باتت تتقدُ في قلبي،

بدأ إحساسي بالجبن يتلاشى وشعرت أنني محاط بجنود من الملائكة.

هؤلاء المراهقون يتسللون من بيوتهم خلسة، ليحرقوا هذه الإطارات القديمة، لا يعلم آباؤهم أين هم بالضبط. تتصاعد أبخرة الإطارات المحروقة، فتخنق شخصاً ما يتشبث بالسلطة، تجتاح رئته فيبدأ بالسعال، يحس أن الكرسي يتزحزح تحت مؤخرته فيرسل رجال أمنه لإطفاء كل الحرائق في المدينة حتى المُعَدَّة لصنع الخبز.

تلك الفكرة جعلتني أقفز نحو المقدمة، وأحمل الإطار بيدي ثم أفترشه وسط الإسفلت، ثم آخذ قارورة وقود أسكبها عليه، وبعدها أشعله بعود ثقاب.

بدت لي أبخرة البلاستيك السامة مثلَ ترياق لكل خيبات الحياة. عندما لامس الدخان عَنان السماء أحسست بالحرية، كل الأفكار السيئة التي كانت تؤزمني بدت تصعد مع الدخان نحو السماء، تاركة قلبي مضخة سعادة.

لم تمضِ إلا دقائق حتى لمعت أضواء سيارات الدفع الرّباعي من بعيد، ألق المساء مع الظلام، يجعلها كبقع دم كبيرة في جسد الليل، لم أشعر بالرعب إطلاقاً، ضحكت بقوة وضحك المراهقون من حولي، ثم تشتت شملنا حول المكان.

اختبأت برفقة اثنين داخل مبنىً غير مكتمل في طَرَف الشارع، وبمرح رحنا نراقب رجال الأمن المرهقين وهم يطفئون النار ويفتحون الطريق.

هؤلاء الرجال مُتْعَبُون إلى أقصى حدٍّ، يعملون ليلَ نهارَ لإزالة

المتاريس والإطارات المشتعلة بلا توقف أو راحة، يحسبون كل صيحة عليهم، يمكن لمراهق واحد من هؤلاء أن يجعل عشرات سيارات الدفع الرّباعي تجوب الطرقات ساعاتٍ بحثاً عنه.

لذلك هم في إرهاق دائم، لا تفارق الشتائم المقذعة أفواههم الجافة، يطلقونها كلما تذكروا ساعات الدوام الطويلة التي تنتظرهم، من دون أن يعودوا إلى بيوتهم لأيام عديدة.

عندما نظرت إلى وجوههم وهي تلمع بأضواء سياراتهم، شعرت بنشوة عظيمة جعلت كل شعرة في جسدي تنتصب واقفة، شعرت أوّل مرة أنني أضعت متعة كثيرة بالاختباء.

في أثناء ذلك رأيت طيف حاتم أمامي، ثم رأيته في ملامح الصبيين اللذين برفقتي، رأيت سعادته ترتسم على وجهيهما فابتسمت، ولكن أسئلة ملحة طافت برأسي حينها، هل يستحق هذا الشعور أن تدخل من أجله السجن؟

هل هذه النشوة كافية لأن تسلم رقبتك لهؤلاء الرجال؟

هل تضمن أن الذين يشعلون الإطارات من بعدك، لن يكفوا ذات يوم؛ فتصير أنت الضحية الوحيدة؟

شعرت ببعض القلق والانهزام فتراجعت القهقرى ثم انسحبت من المبنى، وعدت جارياً إلى البيت. دخلت غرفتي ثم أغلقتها تماماً، رقدت على سريري وأنا ألهث.

هل أنا مصاب برهاب الثورة؟ ضحكت عندما سمعت فمي يردد ذلك السؤال، بالتأكيد لا يوجد شيء اسمه رهاب الثورة، إنه غبار الجبن والخنوع، لا تزال بقاياه عالقة داخل جُدُر القلب.

وضعت المِخدَّة على وجهي ثم نمت.

عندما ألتقي هالة أحس بأنني أفر إليها من كل شيء، ننسى معاً كلَّ الأخبار الكئيبة التي طالعناها خلال اليوم، نظل نثرثر ساعات، ناكل المثلجات.. نطلق النكات ونضحك.. نناقش حول الحب والجمال والرسومات وماكينات الخياطة، عن إخوتها في البيت والطبخ وشغف القراءة وكتابنا المفضل.

أظل معها أقول الكثير لكني أعجز عن التعبير عما يدور في خلدي.

ظل حبي تجاهها يتشكل كالجنين على مهل حتى استوى تماماً، ولم يكن من سبيل إلى حبسه مزيداً من الوقت، لا بدَّ أن يخرج إلى العلن، لا بدَّ أن أعرف إن كانت تبادلني مشاعر الحب أم الصداقة، كان لا بدَّ أن أتهور.

حدث ذلك في أحد أيام منتصف شهر مارس عند الظهيرة، كنا أنا وهالة نجلس على مقعدين مهترئين خلف سائق الحافلة، عائديْن من المحطة الوسطى بحري متجهَيْن إلى أمدرمان بعد أن تناولنا الإفطار مع صديقٍ في مطعم بشارع المؤسسة.

كان الجو حاراً لدرجة أن حبات العرق العجولة تتبخر وهي تنزلق عبر جباهنا، كنت متوتراً إلى أبعد حدٍّ، أردت أن أحدثها عمَّا أحسُّ به ناحيتها لكني أحجمت عن ذلك، ورحت أتَلَفَّت حولي بلا هدىً أفكر في حيلة مناسبة.

خلفنا مباشرة يجلس زوجان يتحدثان بحدة، ويبدوان على وشك الطلاق، سائق الحافلة يراقبني عبر مرآته نصف المكسورة، على يمينه مباشرة رجل يسبُّ الحكومة والثوار الذين يقطعون الطريق معاً.

كل ذلك زاد توتري وترددي وحدثتني نفسي أن الوقت غيرُ مناسب للحديث في الموضوع، لذلك كلما هممت بالحديث ألجمت نفسي، وتساءلت عن مدى سخافتي، ثم كيف سيكون حالي إن أجابت بالرفض..؟!

عندما رأيت جسر شمبات يلوح ونسمات النيل الباردة تلفح وجهي، نظرت إليها بلا أدنى تفكير، طلبت منها أن تخرج هاتفها وتفتح دفتر الملاحظات، ثم أخذته وكتبت: «أنا أحبك».

أعدت إليها الهاتف مجدداً، ساعتها تمنيت لو أن الأرض تنشق لتبتلعني، تبتلعني وحدي دون غيري، وأغوص فيها إلى الأسفل منةَ عام وأستقر في مكان لا يجدني فيه إلا الله تعالى!

كان ذلك ما أحسست به حقّاً، لقد تأكدت لحظتها أنني تسرعت، ليس هذا الوقت المناسب لأخبرها بهذه التّرهات، ربما كنا في حاجة إلى وقت مزيد.. لا أظنها تعرَّفت إلي كما يجب أن يكون، كثير من الأمور في حياتي كانت ستجعلها تنفر مني لكنها تجهلها، لا أدري ما هي هذه الأمور؛ لكن بلا شك ستكون موجودة، هل فعلت فعلتي وانتهى الأمر فعلاً؟ تلك الغشاوة اللذيذة حجبت عني صوت العقل.

نظرت إليها على استحياء، كانت فقط تنظر إلى ما كتَبْت، لم تتغير ملامحها، أو تغيرت؛ لا أدري، فعيني حينها لم تكن تعمل بصورة طبيعية، نسيت وظيفتها في النظر وأخذت تؤلمني.

بدت لي الحافلة فارغة ولا أحد سوانا، تسير بلا محرك وضوضاء، او ان اذني فقدت وظيفتها أيضاً، إنه شعور لا يمكن وصفه، وإنما

يجب على الآخرين تجرِبته على أرض الواقع، ليروا كم هو شعور متعب ونزق.

استمرت هالة تحدق في هاتفها، ظلت جامدة فنزعت عنها الهاتف وكتبت: «أحبك الحبَّ الذي يتزوج بعده الناس ويكوِّنون أسرة». وبيدٍ مرتعشة وباردة أعطيتها إياه مجدداً.

لم تكن يدي لتطاوعني لولا إرغامي إياها، لقد تماديت في جراءتي، خفت أن ترفض وهذا يعني أننا لن نلتقي بعد اليوم، فاللقاءات التي تعقب مثل هذه اللحظات تكون أشبه بطعام بلا ملح، ستكون الابتسامات فيها محض مجاملة وستعود الذكريات الرائعة تنخر رأسي، حينها سأفكر أن كرامتي أُهدرت، ويتبدى لي مدى مجاملة أمي عندما قالت لي: كل البنات تتمنى قربك.

مجدداً أَخَذَت تنظر إلى المكتوب ببلاهة، وكأنها لا تريد أن تجيبني، وربما في لحظة ما ستنزل من الحافلة لتكمل طريقها مشياً، بعد أن تسبني وتمسح ما كتبت.

شعرت بالإحباط، خطفت الهاتف من يدها، وأخذت أفكر في طريقة أخلص بها نفسي، تورطت في أمر لم أكن أهلاً له، لقد تسرعت إلى أبعد حد، سكوتها هذا يعني أنها رفضتني.

كل هذه الأفكار كانت تجعل رأسي بركة آسنة، لكن لم أجد ما أكتبه وأخلص به نفسي، في الحقيقة لا شيء ليكتب، عليَّ فقط أن أطقطق بالوسطى والإبهام وأنزل من الحافلة، محافظاً على ما تبقى من كرامتي.

فُجَاءَةً، خطفت الهاتف من يدي. عدت حينها إلى صوابي ورحت أراقبها، كتبت شيئاً ثم أعطتني الهاتف فقرأت «أنا أيضاً أحبك»، ساعتها فقط دهمني شعور رائع بالانتصار.

تبددت مخاوفي أخيراً، وزالت الغشاوة من عيني، فنظرت إليها في تمعن، كانت أطرافها ترتعش من البرد مع أنَّ الجو سَاخِنٌ، لم تعد قادرة على الكلام أو حتى النظر إلى عيني.

ظللنا لا نتحدث للحظات، كان صمتاً لا بدَّ منه حتى يعيد كل منا ترتيب دواخله وأفكاره المبعثرة، بعد ذلك انخرطنا في أحاديثنا المعتادة كأن شيئاً لم يكن، ضحكنا كما نفعل عادة، ثم صمتت للحظات وقالت:

- لو لم تقلها أنت لقلتها أنا!

في الحقيقة كان فضولنا نحو حيواتنا الخاصة يستحوذ على كلِّ حديثنا، لكن إن حدث وأخذنا الأنس من دون أن ندري نحو حكايات الثورة، فإن هالة تتولى زمام الحكي، تحدثني عن حبها للتظاهر وأسلوبها فيه، وعن المواكب الليلية التي تعجز عن الخروج فيها، فتحمل صحن الحديد وتصعد إلى سطح البيت، ثم تطرق بصخرة على الصحن وتشارك في الهتاف.

صعودها إلى السطح يزعجني كثيراً، فالخطورة هنا أكبر، لأنَّ لجهاز الأمن أعيناً في كل مكان، مواطنون عاديون يسكنون في ذات الحي الذي تسكنه، يقابلونك في المسجد وفي البقالة وحتى في أماكن العربدة، لديهم أفراحهم وأتراحهم التي يشاركونها معك، يبدون أمامك

كحملان وديعة لكنهم فقط ينتظرون منك إشارة ما، هتافاً أو تعليقاً ضد الرئيس أو أي عمل محرم آخر، لتجد بعد دقائق سيارات الأمن وهي تطوق بيتك من كلّ اتجاه.

ربما كانت هالة محظوظة لأنهم حفظوا حق الجيرة، أو لأنهم لاذوا ببيوتهم خوفاً من مدّ الثورة.

قررنا أن نتزوج بعد سقوط الرئيس، لذلك تمحورت نقاشاتنا لاحقاً عنه، لم يكن يمر يوم دون أن يسأل أحدنا الآخر بالرسائل النصية؛ إن كان الرجل قد سقط أم لا، كان الأمر بمنزلة نكتة مُرة أو كوميديا سوداء.

لطالما ارتبط مصيرنا بهذا الرجل منذ أول يوم لنا في هذه الحياة، جئنا صارخين إلى الدنيا فوجدناه الحاكم، ترعرعنا تحت بندقيته وربما نموت تحتها أيضاً، قال أمجد ذات مرة:

- خرجنا إلى الدنيا صارخين، لأننا ولدنا في عهد هذا الحاكم، لو كنا نعيش في بلد ديموقراطي، كنا سنخرج أطفالاً ضاحكين.

استيقظت على وقع أصوات صاخبة وساخطة آتية من الشارع، جلست على حافة السرير أفكر، ظننت أنه موكب صباحي مباغت، يقوم به صبية الحي المتسللون من بيوتهم، لكن عندما أصغيت السمع كانت الأصوات لرجال كبار في السن، لا أحد منهم يمكن أن يُسير موكباً، أعرفهم جيّداً، وأعرف تحفظاتهم على الثورة ورأيهم السلبي فيها، ومنعهم لأبنائهم من الخروج إلى المواكب وحبسهم داخل البيوت.

ارتديت ملابسي على عجل ثم خرجت.

كانت مجموعة من أهل الحي تتجمع أمام حائط المسجد، والذي لا يبعد عن بيتنا سوى مئة متر تقريباً، تقدمت نحوهم أحاول فرز أصواتهم المتداخلة.

كانت هاماتهم الطويلة والعريضة تسد شيئاً على الحائط، يقلبون أيديهم في غضب ويطلقون الهمهمات ويكثرون من الاستغفار والشتم، سألت أحدهم عمَّ يحدث فأخبرني أنَّ بعض الصبية رسموا شيئاً على حائط المسجد؛ فشوَّهوه.

شققت الجموع حتى وصلت إلى المقدمة، وقفت أمام الحائط أتمعنه، كانت هناك رسمة من الجرافيتي عليه، تميل ألوانها إلى الأحمر القاني ذات حافَات بِيضٍ، تمثل مجموعة من الثوار يرشقون عربة أمن بالحجارة، وتبدو ملامحهم خفية، بينما تبدو على وجوه رجال الأمن ملامح الذعر والفزع.

نظرت إلى الرجال الواقفين حولي، عيونهم تنطق شراراً، وهذا مفهوم بالنسبة إليَّ، سيعدون الرَّسم على حائط المسجد كفراً مبيناً، أيّاً كان ما تمثله هذه اللوحة الجميلة، حتى وإن كانت تعبيراً عن الثورة والحرية.

جاء الشفيع صاحبُ البقالة برأسه المستطيل يحمل وعاء طلاء أبيض، شمر عن ساعديه وتنفس عميقاً حتى ارتفع شارباه إلى أعلى، رفع الجردل ثم سكبه على الحائط مخفياً اللوحة، بعدها قام بتسوية النواقص بالفرشاة.

يمكن القولُ إن الحائط تشوه بصورة أكبر، نظرت إلى الجميع مرة أخرى فرأيت الارتياح بادياً على وجوههم، ظلوا ساعةً يتحدثون عما

حدث للحائط، ما لبثت أحاديثهم أن قادتهم إلى أخبار الثورة ثم أزمة الوقود الطاحنة، ثم تحول الأمر للحديث عن كرة القدم.

لقد انتشرت الكتابات والرسومات على الجدران بكثرة هذه الأيام، وراحت تأخذ بعداً جمالياً أكثر من كونها مجرد رسالة من مجهول إلى الحكومة، وأصبحت تشير إلى إعلام بديل عن الإعلام الرسمي الغارق في عزلته عن العالم.

سمِّيت هؤلاء الرسامين «اللصوص المبدعين»، لأنهم يجدون لذة شديدة في كونهم مجهولين، ربما كان راسم تلك اللوحة على حائط المسجد واقفاً وسط الجموع، يحاول قدر الإمكان أن يبدي غضبه أمامهم، لكن في داخله يضحك على سذاجتهم.

أكثر ما جعلني متحمساً لمتابعة هذه الكتابات والرسومات، أنها أثارت الرعب داخل قلوب أنصار الحاكم، يخرج الواحد منهم صباحاً، ليجد كتابات قاسية على جدران بيته، ما إن يطمس معالمها حتى يستيقظ الصباح التالي، ليجد أنها قد جُدِّدَتْ بدهان أكثر لمعاناً وألوان جديدة. إنهم يمعنون في تعذيبهم وإذلالهم.

هذه الحملة مع قساوتها؛ أتت أُكلها وبات أنصار الرئيس أقل حماسةً للدفاع عنه، صاروا يخشون التجمعات الكبيرة كذلك، حيث يُعرضون للتنمر، هذه عزلة اجتماعية قاسية لا شك.

أردت أن أضع بصمتي كذلك، ما يمنعني من الخروج ليلاً للرسم على الحوائط، هو قلة الموهبة.

بحثت في حينا عن رسام، أردته أن يرسم على جدار بيتنا صورة

لحاتم فأخلد ذكراه في ذاكرة الحوائط، إنها ذاكرة لا تخون، يوماً ما لن يجرؤ أحدٌ على مسح هذه الرسومات، وستكون خير شاهد على مسيرة الثورة وبطش النظام.

الرسام الوحيد في حينا؛ الصافي، رفض أن يرسم على الحائط، يخشى أن يُعرَّض للاعتقال والتَّعذيب، وعندما ألححت عليه في الطلب رأيت صَلعَته الصغيرة تلمع من فرط التعرق، أخرج منديله القطني ثم مسحها بحركة سريعة، ولم يُجْدِ ذلك إذ عادت إلى اللمعان من جديد.

سألني محتاراً:

- ماذا ستقول لرجال الأمن عندما يسألونك عن الرسومات التي في جدار بيتك؟

أجبته ضاحكاً:

- سأتفاجأ، وأقف أمامهم مشدوهاً من هول ما رأيت، وسأخبرهم بأن لا علاقتي لي بهذه الرسومات الجميلة، لقد نمت البارحة وحائط بيتي أبيض ناصع، بعض الصبية الأشقياء أصحاب الموهبة رسموها ليلاً ونحن نيام، هكذا أتخلص من رجال الأمن.

وافق الرجل على الرسم بعد معاناة، مسح على صَلعَته كثيراً قبل أن يخرج الموافقة من داخل صدره في تحفظ:

- حسناً.. موافق.

وأخذ المبلغ المتفق عليه.

في المساء قصدت سوق أمدرمان واشتريت الكثير من أوعية

الطلاء والفرش وبخاخات الألوان، ربطتها داخل كيس أسود كبير، وعدت بها تحت جنح الظلام.

قبل الفجر بساعة حضر الصافي وقد غطى وجهه «بالكدمول» فلم يعد يُرى منه سوى عينيه المذعورتين، ظل صامتاً وهو يخرج المواد من الكيس الأسود الكبير.

عن نفسي، لم أكن خائفاً، لكن خوف الرجل الهستيري جعل قلقي يزداد، وقفت على مقربة أراقبه صامتاً، وعلى الضوء الخافت الآتي من منذنة المسجد، بدأ يرسم صورة حاتم بطريقة مذهلة وسريعة.

الرجل يعرف ما يفعل تماماً، لو أنه كان أكثر شجاعة مما هو عليه، لملأ حوائط الحي بالرسومات الثوريَّة، لكنه مثل الكثيرين لن يجرؤ على ذلك، يظن أن لديه الكثير ليخسره لكنه في الحقيقة لا يملك شيئاً.

صبحاً مع تفتح وردة النهار، خرج رجال الحي من المسجد وقد لاحظوا الرسمة الكبيرة على حائطنا، تجمهر بعضهم أمام بيتنا ثم طرقوا الباب، عندما فتحت الباب حمدت الله أنهم ليسوا رجال الأمن وأنا أطالع وجوههم المشدوهة، سألني أحدهم مندهشاً:

- هل رأيت ما فعلوا بحائطك؟

خرجت محتاراً لأنظر ما حدث، وعندما رأيت الرسومات على الحائط أبديت دهشتي الكبيرة بها وقلت:

- يا له من مخرب موهوب فعلاً، انظروا كيف أجاد هذا المراهق تخريب حائطنا بطريقة مبدعة.

كان الجميع ينظرون إلى الرسومات بشيء من الإعجاب ممزوج بتوجس وريبة، أعجبهم ما يرون، لكنه في ذات الوقت جعلهم يرتعدون، نصحَني أحد المسنين أن أطمسها بالطلاء حتى لا أُعرَّض للاعتقال، أجبته بالموافقة، أخبرته بأنني سأفعل ذلك اليوم، لكن بالتأكيد سيدوم ذلك اليوم إلى الأبد.

في نهاية اليوم عندما أسدل الليل أستاره، واستحالت الرؤية الواضحة، وضعت أدوات الطلاء داخل الكيس الأسود، وفي ستر الليل ذهبت إلى النيل، تخطيت الحاجز الإسمنتي ومشيت حتى وصلت إلى الشاطئ.

نظرت حولي؛ تأكدت أنني وحدي، رميت الكيس بعيداً وراقبته وهو يغوص إلى عمق النهر، فقاقيع الماء استمرت تندفع إلى أعلى للحظة ثم انقطعت، أدوات الرسم والطلاء غادرتها الروح أخيراً، لا ذنب لها سوى أنها انحازت إلى الثورة، وموتها بهذه الطريقة في نظري، لا يقل أهمية عن انحيازها.

تمنيت أن يأتي اليوم الذي يقف فيه الرسامون قبالةَ الحيطان، يشرعون أياديهم الملطخة بالطلاء لاحتضانها، لا يخشون سوى المطر والأتربة على لوحاتهم وكتاباتهم، من دون أن يكونوا مطاردين، ومن دون أن يشعر أهل الحي والمارة في الشارع بالتوجس لرؤية ذلك المنظر.

إلا أننا؛ لنصل إلى تلك المرحلة، ربما نحتاج إلى المزيد من أمثال حاتم، أناس يخرجون إلى الشوارع لا يأبهون إن كانوا سيعودون من الموكب سالمين عند المساء أم لا، وإن كان الناس سيتذكرونهم إذا

غابوا أم لا، والمهمّ عندهم أن تأتي الحرية بأجنحتها المشرعة على مد البصر.

عدت إلى الحيّ وإحساسي بالنَّشوة لا يزال حاضراً، وقفت أمام الحائط أطالع صورة حاتم الكبيرة، نظراته حادة ووجهه يكاد يقفز من الحائط، قرأت الكلمات المكتوبة حوله في شكل دائري، اسمه وثورة وحرية وأحرف مبعثرة بعناية فوق الحائط.

دخلت إلى البيت وأنا شاعر بالانتصار، انتصار صغير؛ لكني اكتفيت به هذا اليوم، فالانتصار الكبير كيس يحوي انتصارات يومية صغيرة. ربما لا نلقي لها بالاً في أغلب الأحيان. نتفاجأ بالنتيجة في نهاية الأمر، أو ربما تمر النتيجة كفعل اعتدناه في صورته اليوميّة الصغيرة فلم نعطه قدره.

حسناً، أعتقد أن الإنسان السَّعيد هو من يراقب انتصاراته الصغيرة، وهذا ما فعلته اليوم، إذ نمت قرير العين.

الطرق العنيف الذي على الباب، كاد أن يوقف قلبي، جلست على طَرَف السَّرير محاولاً لملمة أنفاسي، نظرت إلى الشباك فرأيت خيوط شمس الصباح تتسرب من شقوقه الصغيرة في رشاقة.

عاد الطارق يطرق للمرة الثانية، جالت بخاطري عشرات الأفكار السوداوية، تخيلت سيارات الدفع الرّباعي تقف أمام الباب محملة برجال الأمن الغلاظ، حيث يمسح أحدُهم بالدهان الأبيض صورةَ حاتم الكبيرة ويتوعدني بما لا أطيقه. رأيت أمامي كلَّ صور التعذيب التي سمعت عنها من قبل، بل بدأ جسدي يتألم؛ كلما رأيت نفسي على واحدة من تلك الصور.

في الحقيقة، لم أشعر بالندم على اللوحة، وما يمكن أن تجره عليَّ، ولكن انتابني إحساس بالشفقة على أمي التي ستفتقدني إن حدث ما أتوقعه.

على أيِّ حال خلال الأيام الماضية، تيقنت أنني أسير في طريق حاتم، وهو طريق لا رجعة فيه، والسلامة ربما تكون آخر الخيارات.

الفزع الذي أحسُّ به حين تجول تلك الأفكار برأسي أمرٌ طبيعي، فالحقيقة أنه لا يوجد شجاعٌ بالمعنى المطلق، الذي يشير إلى انعدام الخوف، بل هناك صبور متحمل للألم، ينتظر يأس خصمه، لينقض عليه متخلصاً من آلامه التي أنهكت جسده، ونحن هنا كثيرون؛ ننتظر أن ننقض على السلطة مع الرهق الذي نحسه، والشعب صبور.

ارتديت قميصي ثم خرجت من الغرفة لأفتح الباب. انزاحت الصخرة الكبيرة عن كاهل قلبي، عندما وجدت الطارق جاري طلال، وبرفقته بعض الأشخاص يحملون علب دهان أبيض، تكاد أعينهم المحمرة أن تقفز من محاجرها.

أزعجتني علب الدهان فصرخت فيهم:

- أخبرتكم سابقاً أنني سأزيل اللوحة وحدي؛ لأنَّه جدار بيتي كما تعلمون.

قاطعني طلال في انزعاج رافعاً يده، ثم أشار ناحية حائط المسجد وحوائط الحي، وقال بصوت هامس:

- نريد أن نزيل كلَّ هذه، ونريدك أن تساعدنا.

مددت رأسي نحو الأمام، كان حائط المسجد وكل حوائط الحي

تحمل كتابات ورسومات: (موكب 6 أبريل). حتى لوحة حاتم الكبيرة لم تسلم من الكتابة، في المنتصف تماماً كُتبتِ الدعوة للموكب، ذلك أسعدني قليلاً مع أنه شوَّه اللوحة.

كل حيطان الحي كُتِب عليها. وذلك ما جعل أهل الحي يصابون بالفزع، بعضهم أزال الكتابات وبعضهم خاف أن يشوّه حائطه أكثر فتركها، لكن لا شك أن نومه ليلاً سيكون متقطعاً.

اعتذرت لجاري عن المشاركة بحجة حساسيَّة أنفي للدهان، وعندما نظرت إلى العلب التي بأيديهم رحت أكح وأعطس.

بعد الظهر، تمشيت في شوارع الحي ثم خرجت إلى الشارع الرئيس، حتى وصلت إلى المحطة، لم يكن هناك حائط؛ لا يحمل تاريخ السادس من أبريل، ودعوة للخروج من كل حدب وصوب لإسقاط النظام.

رأيت من بعيد بعضَ الصبية، يحملون بخاخات اللون، يعيدون الكتابةَ على باب دكان، كان صاحبه قد مسح ما كتبوه البارحة، راقبتهم وهم يعيدون الكتابة بسرعة ثم يتخفون في الأزقة الجانبية، متحدّين كل من يحاول رصدهم.

حركتهم المنسابة بإتقان، تبين مدى سعادتهم بما يفعلون، يشنون حرب شوارع خطرة على نظام حكم باطش، لا أدري تفسير ذلك، لكن أفعال الثورة لا تُفسر ولا تُسوغ في الأغلب، لأنها مندفعة من عاطفة قوية وأحلام وردية، تصنع غشاوة لذيذة أمام العين، فيتساوى في نظرها الرصاص والورد.

أستطيع القول إن الثورة عمل عاطفي غير عقلاني، هذا ما يفسره بوضوح اختيار يوم السادس من أبريل، ليكون يوماً للموكب، ففي ذات اليوم من عام 85 خرج الناس في انتفاضة على نظام الحكم آنذاك وأسقطوه، ورغم النهاية المأساوية لتلك الانتفاضة فإنها تظل تحرك شيئاً داخل النفوس.

الدعوات على الحوائط تنادي بالتَّوجه إلى القيادة العامة للجيش، وتسليم مذكرة لقادة الجيش تطالبهم بالوقوف في صف الثورة، هذه الدعوة مثيرة للقلق قليلاً؛ كون جنرالات الصف الأول في الجيش، عادة ما يكونون أكثر الموالين للنظام، لذلك لا يمكن الحكم على نجاح الموكب منذ الآن.

بدا صباح السادس من أبريل صباحاً عادياً، بشمسه الدافئة وطيوره الملونة، التي ترف على شباكي من الخارج، فأسمع زقزقتها المرحة وأنا أتكئ على حائط الغرفة محاولاً التفكير في أمر ما، ولم تكن الساعات الأولى لتمر من غيرِ أن أتذكر حاتم، أو أن أعيد اجترار حلمي الذي رأيته يقاسمني لعبتي فيه، أو أتذكر أمه التي لم أزرها من مدة؛ وأوبخ نفسي على ذلك.

وككل مرة أرسل إلى هالة رسالة الصباح؛ وأنتظر منها الرَّد على أحر من الجمر، ذات الروتين اليومي الذي لا أمله أبداً، فأنا أعشق الروتين عندما لا يلزمني به أحد، لكن قلقاً داخلياً كان يتخلق على مهل، ينضج مع نضوج شمس الصباح، كان هو المتغير الوحيد الذي طرأ هذا اليوم.

شربت الشاي على عجل، ثم خرجت أطوف في الشوارع، كانت

حركة السَّير طبيعية للغاية، ولا شيء يشي بحدث عظيم سيحدث هذا اليوم، بعض الكتابات على الجدران قد مُحيت بالفعل، اختفى الصبية تماماً من الطرقات مع حركة سير طبيعية، ذلك جعلني بين شعورين متناقضين، أحزنني ألا يهتم الناس بهذا اليوم مع التحشيد الذي سبقه، وفي ذات الوقت، اعتقدت أن هذا البرود سيحقن دماء كثيرة، كانت ستهدر لو خرج الناس بالآلاف هذا اليوم.

أكملت طوافي ثم عدت إلى البيت، جلست أمام التلفزيون ولم يكن هناك ذكر للموكب فلجأت إلى هاتفي، كانت مواقع التواصل تضج بالدعوات للموكب والكتابات التحليليَّة التي تسبق المواكب عادة، كان الزخم كبيراً.

مواقع التواصل لا تشبه الشارع كثيراً، مع أن تأثيرها عليه كبير، فيها حركة دءوبة وحوارات لا تنقطع، أحياناً يخيل إليَّ أن الناس المرهقين الذين يسيرون في الشارع ولا أسمع لهم حساً، هم أنفسهم رواد هذه المواقع، لكنهم استنفذوا كل قواهم هناك، ولم يعد لديهم ما يقولونه في الشارع.

بعد ساعات من التَّصفح فطنت إلى أن الساعة الواحدة قد دخلت، مواعيد انطلاق الموكب، في ذات اللحظة، ظهرت أمامي مقاطع فيديو مباشرة لانطلاق شرارة الموكب.

شقت الزغاريد عَنان السماء، وتعالت الهتافات في الشوارع المفضية إلى القيادة العامة للجيش وسط الخرطوم، الموكب الذي تابعته؛ يكبر ككرة الثلج المنحدرة من أعلى الجبل، والحماس في قلبي كان يزداد كلما ازدادت كرة الثلج حجماً، وإن كانت تلك حالتي وأنا

بعيد عنهم، فكيف يكون شعورهم، لا شك أنه حماس ممزوج بالأحلام وقليل من الخوف.

حاولت كتائب الأمن الموجودة بكثافة في الطريق أن تعرقل الموكب، لكنه كان يجتاح كل العراقيل وكأنها دخان، بالتأكيد في تلك اللحظة رأى الجميع ذعر الرئيس في أعينِ كتائبه الأمنيَّة التي تحمل البُندقِيات بأيدٍ مرتعشة.

ساعات بسيطة كانت كافية لتقتحم الجموع محيط قيادة الجيش، جموع قادمة من موقف جاكسون وشروني، وأُخرى من بحري، دخلوا دخولَ الفاتحين بلا أي تعب بادٍ على الوجوه الفرحة، مع أنهم ظلوا يُعرَّضون للغاز المسيل للدموع بكثافة في الطريق، لكن ذلك لم يُلن عزيمتهم، لم يدعوا لجنرالات الجيش من خيار إلا الوقوف والنظر إلى تلك العظمة من نوافذ القيادة.

سألت نفسي في حَيرة، لماذا لست معهم الآن؟ هل أنا كَسِلٌ أم خائف؟

مع أنني لم أخرج لأقف مع الصبية الذين أسمع صراخهم الآن في الشارع المقابل، فإنّي لم أسمح لهذا السؤال أن ينقص فرحتي باقتحام محيط القيادة، وأخذت أتابع الدعوات التي انتظمت في مواقع التواصل، تطالب الثوار بالاعتصام هناك، لا مزيد من المواكب، فقط اعتصام طويل النَّفَس حتى يسقط النظام.

هذا اليوم كان الأعظم على الإطلاق، ولو أن التاريخ لم يسجل غيره عن ثورة ديسمبر لكفاه.

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بقرب عودة حاتم، كنت أراه في كل بقعة داخل أرض الاعتصام، يمشي بين الجموع ويهتف من غيرِ كلل أو ملل، يبح صوته فيفتح قارورة الماء التي في يده ويشرب.

لم أنم إلا بعد منتصف الليل، قضيت اليوم بأكمله أتابع الأخبار والإشاعات التي تجعل قلبي ينقبض، لكني نمت وفي نفسي رغبة قوية في الحضور هناك.

في صباح السابع من أبريل أيقظني رنينُ الهاتف، ومن دون أن أنظر إلى المتصل وضعته على أذني، ثم أجبت، فجاءني صوت هالة المرح، اعتدلت في جلستي وأنا مندهش، لم أعتد أن تتصل بي في هذا الوقت من الصباح، ففي العادة نكتفي بالرسائل فقط.

سألتني:

- ما رأيك أن نزور الاعتصام؟ لقد تغيبنا عنه البارحة، أشعر بالندم والحماسة في ذات الوقت.

لم أعط لنفسي مساحة للتفكير في الأمر، أيقنت أنه أصبح عملاً واجبَ الحدوث فأجبتها بالموافقة، يجب أن أضع أرجلي في تلك الأرض المحررة، لا أنكر أنني خفت قليلاً كعادتي دائماً، لكني أصبحت مؤمناً أن الخوف ليس بعائق، شعور طبيعي يزول كلما تقدمت خطوة نحو الأمام.

أغلقت الهاتف ثم ارتديت ملابسي على عجل، لقاء استثنائي بهالة وزيارة أرض الاعتصام؛ لا يمكن أن يحدث أفضل من هذا إطلاقاً، خرجت من دون أن أخبر أمي بوجهتي، وحتى من دون أن تراني،

تسللت كلصّ، وأغلقت الباب خلفي في هدوء، خشيت أن أسبب لها الذعر، فهي لم تعتد مني مثل هذه التصرفات التي تجعلني في مواجهة مع الحكومة، وتعلم جيداً مدى خوفي من هذه الأشياء.

قابلت هالة عند محطة الرومي، برفقة صديقتها مودة، وذلك جعلني أطمئن أكثر، فكلما زاد عددنا قل الخطر، هكذا فكرت.

لم ننتظر كثيراً حتى وقفت الحافلة أمامنا، جلسنا على المقعد الأخير، تبادلنا الأحاديث كأننا في رحلة إلى النهر للتنزه، وإن كانت النزهة أقل خطورة من محاولة الذّهاب إلى الاعتصام، لكنها كذلك أقل حماسة، لقد امتزجت بداخلنا أشياءُ كثيرة لا تختلط أبداً، أنا شخصياً لم أجربها، لم أجرب ما أسميته ساعتها بالخوف اللذيذ والشجاعة الجبانة.

كانت تلك الرحلة إلى المحطة الوسطى الأطول في حياتي، وخلال لحظات الصمت الكثيرة، التي كانت تتخلل أحاديثنا تنتاب عقلي أسئلة كثيرة، كلها يتمحور حول ما سيقابلنا خلال الطريق، خاصة بعد أن بدأ بعض الركاب يتحدثون كمن يملك الثقة الكاملة فيما يقول.

قال رجل مسن يجلس بالقرب من السائق:

- رجال الأمن يوقفون الحافلاتِ في الشارع، وينزلون منها الشباب ثم يأخذونهم إلى المعتقلات.

قاطعه رجل بلحية حمراء، يجلس في المقعد أمامنا مباشرة:

- لا توجد معتقلات.. كلها ممتلئة.. سيطلقون النار عليهم فوراً.

كنت أسمع كل ذلك الكلام، وأجاهد في بلع ريقٍ لا أجده إطلاقاً.

أعرف المحطة الوسطى جيّداً، لكني عندما أنزلت قدمي من الحافلة أحسست أنني أضعها فوق أرض غريبة، يسودها الحذر والهدوء التام، فاقدة لصخبها المعهود، الجميع يسيرون في صمت مهيب حَذِر، تضج المحطة بالباعة وماسحي الأحذية، لكنهم جميعاً كانوا يراقبون ما حولهم في صمت.

الجميع يخشى الجميعَ.. قرأت في وجوههم الريبة المتبادلة، بعضهم يريد أن يصل إلى القيادة، وبعضهم يريد أن يعمل في سلام وصمت، أصحاب الحافلات يقفون بعيداً ليلتقطوا الركاب، ثم يفرون مجدداً إلى أمدرمان، لقد اختلّت موازين المحطة تماماً.

تحركنا من المحطة متسربين بالأزقة؛ سائرين على الأقدام نحو القيادة، مسافة ليست بالهينة ولم تحدثني نفسي من قبل على قطعها، لكن يبدو أنَّ الحماسة التي انتابتني، عندما شعرت ببعض الأمان فور خروجنا من المحطة المزدحمة، قد ضاعفت من قدرتي على المشي، وخلال وقت وجيز وصلنا إلى جسر المك نمر.

كانت هناك دورية شرطة، تقف أمام مدخل الجسر الخالي تماماً من السيارات، أبطأنا حركتنا بعضَ الشيء لكننا واصلنا المسير، خاصة أننا أصبحنا مكشوفين ثلاثتنا أمام الدورية، ولم يكن هناك مجال للفرار أو التراجع، فقط تجمد الدم داخل عروقنا.

مع كل خطوة نخطوها نحو الدوريَّة، كنت أفكر في حيلة تختلف عن سابقتها، محاولاً إيجاد كلمات مناسبة، يمكن أن تقال لقائد الدورية حتى ننجو من الاعتقال.

همست لهالة:

- إن سألونا عن وجهتنا، سنقول إننا ذاهبون إلى المستشفى لزيارة مريض، هل تبدو لك فكرة جيدة؟

ولم أتلق منها جواباً، ففي موقف كهذا، يتوقف العقل تماماً عن التحليل والابتكار، ويفضل الشخص أن يظل ماشياً وفق خطته القديمة، وكل أمله أن ينجو فقط.

على وقع خُطواتنا المتعثرة التي تأبى أن ترجع، خرج الضابط من سيارة الدورية قاطعاً الشارع العرضي إلى الجهة الأخرى، وقبل أن يصبح في مواجهتنا تماماً، سأله رجل كبير في السن، يحمل أكياس ليمون سؤالاً لم نسمعه، فأجابه ضجراً:

- فلتسقط الحكومة حتى نرتاح.

كانت تلك الكلمات مثل إشارة خضراء للمرور، فاندفعت الحماسة تملأ أجسادنا بالنشاط من جديد، وقادتنا الخطى حثيثاً للعبور أمام الدورية، ومن ثم الصعود إلى جسر المك نمر، تاركين كلَّ الهلع والمخاوف خلفنا أمام الدورية وعساكرها الذين شعرت بأعينهم الحادة تخترق أجسادنا.

لفحت نسمات النيل وجوهنا، وأزالت معها بعضَ الرهق والخوف، رائحة النهر عذبة وطيبة، كان صعودنا في الجسر هادئاً فسمعت احتكاك حذائي بالإسفلت، صوت تلاطم الأمواج بدا واضحاً؛ أسمعه أوّل مرة.. في السابق كانت أصوات عوادم السيارات تطغى عليه فينزوي بعيداً، الآن في هذه اللحظة أسمعه جيِّداً، صوته الشجي يجعلنا كمن يمشي على جزيرة صغيرة وسط النهر.

خلال ربع ساعة فقط، قطعنا الجسر إلى الجهة الأخرى، سرنا

بعدها طويلاً على الإسفلت، ثم انعطفنا شرقاً بشارع الجُمهورية الذي في نهايته أرض الاعتصام، وما إن بدأت مباني قيادة الجيش تلوح لنا في الأفق، حتى تبددت آخر مخاوفنا.

كنا نسير ومعنا العشرات يحملون أعلاماً ترفرف بلا توقف، هتافاتهم المرحة تجعل قلبي ينبض بقوة، يتدفق الأدرينالين عبره، ليضخ الحماسة في جسدي الذي لم أعد أعلم إن كان متعباً أم لا يحتاج إلى راحة.

في تلك اللحظة العظيمة، تيقنت أن السقوط أصبح أمراً حتمياً بلا شك، تمنيت أن أرى حاتم في تلك اللحظة، لأخبره أن ما خرج من أجله يتحقق فعلاً، لا شك أنه عند خروجه في ذلك اليوم من ديسمبر؛ ما كانت لتغازل خياله مثل هذه المناظر البديعة، كان سيظنها محض أوهام وأحلام لن تتحقق، تمنيت لو أنه يرى ما أرى الآن، ويمشي معي إلى مباني القيادة، التي بدأت تظهر كقلعة حصينة من على هذا البعد.

عند وصولنا إلى الاعتصام لم أستطع النطق، مجموعات كبيرة من البشر لا تجمعهم سوى كلمة واحدة: (تسقط بس). تختلف تدرجات ألوانهم وأعراقهم وخلفياتهم الثقافية والحضارية، يعملون بهمَّة ونشاط، بعضهم يصنع الطعام، وبعضهم يقف عند البوابات التي صنعوها من البراميل والخشب والسلك الشائك، ليبث الطمأنينة في قلوب كل الداخلين، فيؤدون دورهم الثوري على وجه كامل.

لم يكن مسموحاً لأحد بالدخول من غيرِ تفتيش، دخلت من باب الرجال، رفعت يديَّ عالياً، في حين مرر الشاب يديه حول خَصري وجيوبي ثم ابتسم في وجهي وطلب مني الدخول.

لم تكن السيارات تدخل سوى التي تحمل لوحات الجيش، وبعض الشاحنات التي تحمل المياه المعدنية والطعام الجاهز.

ما إن يتخطى أحدٌ هذه الحواجز، حتى يشعر بأنه في سودان جديد وحقيقيّ، سودان ليس فيه سلطة إلا للثوار، ينتشرون حول مباني قيادة الجيش سيلاً لا تُرى له حدود، فيضيع منه الهواء داخل هذا الازدحام، ولا يجد سوى الهتافات ليتَنَفّسها، تتغلغل إلى شعبه الهوائية فتغنيه عن كل شيء.

«عليك أن تأخذني ذات يوم لأرى الاعتصام».

قالت أم حاتم ذلك وهي تبتعد عن الباب حتى أدخل.

ابتسمت في وجهها ابتسامة عريضة ثم ولجت إلى الداخل، وبينما أمشي ناحية الصالة قلت:

- هل تريدين أن تبحثي عن حاتم هناك؟

لم تجبني وظلت ماشية حتى وصلنا إلى الصالة، التي يبدو أنها لم يدخلها أحد منذ زيارتنا الماضية.

طلبت مني الجلوس على الأريكة الحمراء مشيرة بيدها ففعلت، وجلست هي قبالتي وقد لمست على وجهها ملامح سعادة عابرة، سكتت للحظات ثم قالت:

- لا أريد أن أبحث عن حاتم، أحس بأنني سأراه قريباً، ولكني أريد أن أشارك في هذا الحدث العظيم، أشعر أنه ثمرة اجتهاد ابني، عندما أرى الاعتصام في التلفزيون أشعر بأنني أم لكل هؤلاء، لقد

ألمني سقوط قتلى البارحة بسبب محاولة فض الاعتصام بالقوة، لكنهم اخفقوا، كم أتمنى أن يفجعهم الله في أنفسهم وأولادهم.

قالت ذلك ثم انحنت على يدها، لم أرها تهتز بفعل البكاء، لكن لا شك أنها بكت في ألم.

لم تمضِ دقائق حتى نهضت من جديد، ثم أعدّت كوب قهوة. قالت وهي تقدمه لي:

- أين هالة وأمجد، لماذا لم يأتيا برفقتك، هل هما بخير؟

أجبتها بأنّهما بخير وعافية.. هالة ذهبت إلى الاعتصام منذ الصباح الباكر برفقة أمها وأخواتها، وأمّا أمجد فما يزال في القرية، لكنه سيأتي غداً ليلحق بالاعتصام، لا يستطيع أن يفوّت حدثاً كهذا.

لم تعقب أم حاتم على كلامي، بل تراجعت وجلست على كرسيها في تثاقل، ظلت سارحة للحظات كأنها تعيد اجترار ذكريات بعيدة.

انتظرتها للحظة طالت ثم قالت كأنها تحدث نفسها:

- كان حاتم كثيرَ الحديث عن الهجرة والاغتراب، وفي كل مرة يحدثني عن ذلك كان قلبي ينقبض وأشعر بالفزع فأزجره، مع أنني أعلم أشواقه وأحلامه، فإني كنت أخشى أن أفقده فوقفت حاجزاً أمامه، أشعر أن نهايتي ستحين قريباً، وأتمنى أن يكون آخر ما تقع عيني عليه قبل أن تنطفئ إلى الأبد.

وضعت كوب القهوة على الطاولة، فكرت للحظة ثم قلت:

- لا أريدك أن تقولي مثل هذا الكلام، عمرك طويل إن شاء الله، وستحتضنين ابنك قريباً؛ لا شك في ذلك.

بعد برهة سألتها باهتمام:

- كيف كان ينوي حاتم السفر؟

قالت بصوت متهدج:

- ظل يردد أنه سيسافر بالبحر، ذلك أمر كان يزيدني جنوناً، لكني الآن أتمنى أن يعود ويسافر بالبحر، في الأقل سأكون متيقنة من خيارين لا ثالث لهما، إمّا أنه بخير عندما يعبر إلى الجهة الأخرى من العالم، وإمّا أنه ميت عندما يعلنون انتشال جسده من داخل الماء خلال يومين، لكن انظر الآن؛ مرت شهور طويلة وأنا لا أدري أين ابني وما حالته.

ثم راحت تبكي في صمت، هذه المرة رأيتها تهتز من الألم، شعرت بأن عيني بدأت تؤلمني لأنني حبست دموعها عِدَّة مرات، وتفاقم ألمها عندما أطلقت أم حاتم العنان لصوتها فخرج ليصفع ثباتي فنزلت الدموع من عيني، ظللت على تلك الحالة ساعة تقريباً، جف حلقي من الكلمات، ولم أجد ما أواسيها به، لا شك أن زياراتي لها لا تفرج همها كما تدعي، بل إنها تزيد ما بها من ألم إلى حد البكاء، أحسست في تلك اللحظة أن عليَّ المغادرة، ثم استأذنتها في الخروج.

لم أشعر بأنها كانت تريدني أن أغادر، ودعتني وكأنها تترجاني أن أظل جالساً، في قلبها الكثير لتقوله لكنها تخشى أن ارفض، وكنت سارفض فقلبي لم يعد يتحمل، لكن المهم أنها وجدت من يسمعها أخيراً.

وعدتها أنني لن أطيل الغيبة هذه المرة، وخلال أيام قليلة سازورها برفقة هالة وأمجد لنشرب معها فناجين من القهوة، أخبرتها ممازحاً أن من يشرب قهوتها ويسمع صوتها الحنون لا شك لن ينقطع عن بيتها.

خيبات كبيرة

قابلت أمجد في أرض الاعتصام، جاء من موقف الحافلات مباشرة من دون أن يعرج على البيت، حاملاً حقيبته الكبيرة، التي أثقلت كاهله فحملتها عنه ساخراً من قراره بالحضور إلى الاعتصام أولاً.

ظل يهتف برفقة الثوار قاطعاً المسافةَ من شارع الجامعة حتى صينية بُري عدة مرات، لم يشعر بالتعب إلا عندما جلسنا عند إحدى بائعات القهوة أمام مبنى كلية الأشعة المطل على القيادة، بدا وكأنه قد عُرِّض للضرب المبرِّح حتى إنه عجز عن شرب قهوته.

سألني بعد لحظة صمت عن أم حاتم، فأخبرته بما قالته عن كون حاتم كان ينوي السفر بالبحر، قال أمجد بصوت كسلٍ متعب:

- ربما يكون قد سافر بالبحر فعلاً.

أجبته منزعجاً:

- كيف ذلك وقد استخفى من أحد المواكب، كان يومها برفقة أصدقائه وقد شهدوا ذلك.

قال أمجد:

- لا أعلم، ولكن لا أستبعد سفره.

عند السادسة مساءً بعد عناء يوم طويل في ساحة الاعتصام، قررنا العودة إلى البيت، في تلك اللحظة وردني اتصال من رقم غريب، لكن الصوت في الجهة المقابلة لم يكن غريباً، إنه حسن صديقي المغترب الذي ألف الغربة واعتادها، فلا يأتي إلا لماماً، كان رقْم الهاتف محلياً.

أكثر ما أثار دهشتي أنه حادثني قبل ثلاثة أيام ولم يخبرني بنيته العودة إلى السودان، لكنه كان يتابع الأحداث باهتمام.

سألته في استغراب:

- هل عدت إلى السودان فعلاً؟

أجابني بضحكة مجلجلة، ثم قال:

- أنا الآن في أرض الاعتصام.

قلت متعجباً:

- كيف ذلك؟

قال:

- عندما شاهدت السيول البشرية وهي تقتحم محيط القيادة لم أستطع الصبر، أحسست بأنني أجلس فوق كومة جمر، لم أستطع النوم، وكلما أغمضت جَفنيَّ شعرت بالشوك ينمو داخلهما، في الصباح التالي ركبت الطائرة من دون حتى أن أخبر مشرفي في العمل، وعند الظهيرة كنت قد نزلت في مطار الخرطوم، ولم أتوجه إلى أي مكان سوى القيادة.

أغلقت الهاتف ثم تحركت حسبَ الوصف الذي قاله حسن، حتى وصلنا قبالة جامعة الخرطوم، في الجهة الغربية لساحة الاعتصام، وما إن رآنا حتى لوح بيده مبتسماً فوصلناه خلال لحظات بسيطة.

صافحته بحرارة وكان برفقته شاب لم أره من قبل، أشار إليه قائلاً:

- هذا حسام، مفاجأة كنت أعدها لك، لقد كان برفقة حاتم في واحدة من زنازين الاعتقال، تعرَّفت إليه اليوم وقادنا الحديث بالمصادفة إلى حاتم.

صافحت حسام وأنا عاجز عن الكلام، بدأ قلبي ينبض بقوة، ولم أعد أسمع ما حولي من صخب الاعتصام.

تلاشت أصوات الطَّرق الذي يحدثه بعض الصبية على القضبان أعلى نفق سكة الحديد، نظرت إليهم نظرة خاطفة فرأيتهم تحت الضوء القادم من مصابيح المنصة الرئيسة وهم يحملون السيخ والحجارة، في حركة بطيئة يطرقون على القضبان والسياج، يعزفون ألحاناً لم أعد أسمع منها شيئاً.

احتجت إلى خمس دقائق حتى أعود إلى رشدي، جلسنا على مجموعة أحجار صخرية موضوعة خلف كشك السجائر، بدأنا حديثنا بتبادل الأسئلة عن الصحة والأهل كفعل بروتوكولي معتاد، لكنه كان ثقيلاً على نفسي، إذ إنني أردت أن أعرف كل ما في جوف حسام من أخبار عن حاتم.

بعد جلوس طال نصفَ ساعة، تجرأت وسألت حسام أخيراً عن حاتم، فبدأ يحدثني ساعتين عن رحلتهم الطويلة داخل زنازين جهاز

الأمن، والتي استمرت لأكثر من تسعين يوماً، تنقلوا خلالها بين المعتقلات في مدينتي كسلا والأبيّض وأخيراً معتقلات موقف شندي في الخرطوم، قبل أن يخرج كل المعتقلين بعد دخول الثوار إلى القيادة العامة بساعات قليلة على دفعتين.

سألته:

- أخبرني كيف تعرّفت إلى حاتم؟

قال: تعرّفت إلى حاتم داخل الحافلة الكبيرة التي أقلتنا من الخرطوم إلى الأبيض.

كان ممنوعاً علينا التحرك داخل الحافلة، لكني كنت أحس بالضجر، وبدأ أسفل ظهري يؤلمني ذلك اليوم.

في منتصف الطريق سقطت دورية الحراسة داخل حفرة فانفجر إطارها، ذلك الأمر الطارئ اضطر جميع العساكر إلى النزول وتركنا داخل الحافلات، حينها شعرت ببعض الحرية فنهضت.

رحت أتجول داخل الحافلة الكبيرة، حتى أستعيد بعضاً من لياقتي، استمر تَجوالي ذاك حتى دهمني الحارس وهو يحمل في يده عدة الصيانة، صرخ في وجهي:

- عد إلى مكانك، يا سجين.

فهرعت إلى الجلوس فوراً على أول كرسي بالقرب.

ما إن عاد كل شيء إلى طبيعته، وتحركت الحافلة، حتى نظرت إلى المعتقل الجالس على يميني، كان هادئاً ينظر إلى السهول على

جانب الطريق، ويبتسم من حين إلى حين بلا سبب واضح، ويبدو أنه أحس بنظراتي فالتفت ناحيتي، ظللنا صامتيْن، نتبادل النظرات حتى بادرت إلى كسر الجمود:

- مرحباً، أنا حسام.

أومأ المعتقل برأسه عِدَّة مرَّات قبل أن يجيبني:

- حاتم.. اسمي حاتم، سعيد بوجودي معكم في معتقل واحد.

قلت له ممازحاً:

- من النادر أن تتحفظ السُلطة على أحد كل هذه المدة إن لم يكن خطراً، فنحن وحوش.

ضحك واعتدل في جلسته وقال:

- بعد نجاح الثورة لن يستطيع أحدٌ المزايدة على ثوريتنا، بالمقابل نستطيع أن نطعن في ثوريَّة الجميع.

ضحكنا وأحسسنا أن كل الحواجز التي بيننا قد تضاءلت، وصرنا أصدقاء ورفقاء في النضال، عشنا بعد ذلك معاً داخل الزنازين نتشارك كل شيء حتى فرش الأسنان، كنا مضطرين إلى ذلك حقاً.

وهنا صمت حسام عن الحديث فقلت:

- من الرائع أنك تعرَّفت عليه.. أنت أفضل حالاً مني، رغم أنك تعرَّفت عليه في أسوأ الأحوال وتحت أنظار الأمن.. أنا سعيت للقائه في آتني لكن أخفقت.

قال حسام:

- أجل.. حدثني حاتم عن ذلك اللقاء، أخبرني أنه عثر على صديق عمره الذي بحث عنه مطولاً بالمصادفة، قرر مقابلته في ساحة آتني، وعند المدخل دهمته قوات الأمن، اعتقلوه وضربوه ثم فكوا قيده اليوم التالي بلا أدنى سبب واضح للاعتقال بهذه الطريقة.

هنا تذكرت ذلك اليوم في آتني عندما التفت ناحية مدخل الشارع، رأيت سيارة الأمن وهي تعتقل شاباً، من المؤسف انني لم أدرِ انه حاتم، يا لبؤسي؛ لم أفعل شيئاً سوى الفرار، كاد أن يكون بين يدي ولكني فضلت النجاة.

لو لم تكن ملامحه قد تغيرت لعرفته وجريت لأنقذه، كنت سأخفق في ذلك، لكنهم سيعتقلوننا معاً ويفكون قيدنا معاً.

صمَتُّ ولم أبح بذلك السر لحسام، فقط فضلت الاستماع حتى أسلي خيبتي الكبيرة.

سكت حسام دقيقة ثم عاد إلى الحديث:

- كلامه في العادة يبدو ساخطاً، لا يستطيع الحديث عن أي أمر من دون أن يزج في داخله كمّاً كبيراً من البؤس.. الهموم التي في رأسه بالنسبة إليَّ ليست مفهومة.

إنه لا يطمح أن يشتري بيتاً أو يتزوج، بل يردد فقط قوله إنه يريد أن يعيش في سلام، ويقول إن هذا هو واجبه تجاه البشريَّة، ولا يضيره أن يسكن في بيت من الحصير، لكن ليس وهؤلاء يحكمون.. فأساله مجدداً لماذا إذن ترغب في الهجرة بالبحر، هذا مطلب الطامحين للبيت والسيارة والمال، فيجيبني مبتسماً: هذه وسيلتي للفرار من مسئولياتي تجاه قومي ليس إلا.

نظر حسام إلى عينيَّ فرآهما تلمعان، أخذ نفساً عميقاً وأطرق ناحية الأرض وقال:

- لقد حدثني عنك كثيراً.

في تلك اللحظة رفع رأسه ناظراً نحوي وتابع:

- بعد أن اختفيت من حياته؛ ظل يبكي فِراقك زمناً، انزوى داخل البيت ولم يعد يخرج أبداً، أخبرني أنك كنت بالنسبة إليه بمنزلة الدينامو الذي يحركه.

في بعض الأيام كان يخرج ليطرق باب بيتكم المهجور، يظل يطرق ساعة، ظانّاً أن كل ما مر به مجرد حلم، وأن أمك الضجرة ستفتح الباب في أيِّ لحظة، لتناديك ثم تخرجان معاً إلى الميدان للعب.

ما يؤسفني حقاً أنه لم يسع لخلق صداقات جديدة، حتى عندما وصل إلى الجامعة كانت علاقاته مع زملائه سطحيَّة للغاية مهما بلغ عمقها، حتى أنا صداقتي به كنت أحسها مفروضة عليه بفعل السجن.

من الجيِّد أنك تبحث عنه مع أنك لا تعرف كل هذه الأشياء، سيسعده ذلك عندما يعود.

انفضت الجلسة فخرجت وأمجد من ساحة الاعتصام عائديْن إلى البيت. لم تكن هناك مواصلات، فسرنا على الأقدام من شارع المك نمر مروراً بالجسر نحو المحطة الوسطى.

فوق جسر المك نمر رحنا نتحدث قليلاً في أمر الحياة، مع أنَّ عقلي كان مشوشاً بالقصة التي حكاها حسام؛ فإنّي جاهدت حتى أتجاوب مع أمجد.

سألته عن حال حيواناته التي يربيها وزراعته، أخبرني أن البقرة قد ولدت عجلاً أسودَ، يفكر في بيعه عندما يكبر.. هكذا هي العادة في القرية، في جميع المناسبات يبحثون عن عجول لإطعام الضيوف، لذلك ستكون أسعارها جيِّدة، تركه ومزرعته الصغيرة في عهدة عامل أمين.

سألته ماذا عن الوظيفة والشّهادات الجامعيَّة، فلاذ بالصمت.

ركبنا الحافلة من المحطة الوسطى، جلست على الكرسي المجاور للشباك، أردت أن أراقب المناظرَ على الطريق، لكني لم أستطع.

أغمضت عيني علّي أنام قليلاً، فتراءى لي شبح حسام أمامي يحكي من جديد، صوته يملأ المكان من حولي وقد حجب صوت محرك السيارة وصخب الشارع، يحرك يديه كثيراً في أثناء الوصف ويشمر عن ساعديه أحياناً وهو يحكي بجدية، في حين أصغي إليه باهتمام.

فتحت عينيَّ فُجَاءَةً فرأيت كلَّ ما ينطق به حسام يتمثل أمامي.. رأيت حينها حاتم وهو يُعرَّض للاعتقال، ملقىً على الأرض، والضباب الذي يصنعه الغاز المسيل للدموع يحجب الرؤية حوله، ثم رأيت خمسة رجال أمن ينكبون عليه بسياطهم، لم يتركوا مكاناً في جسده إلا وضربوه.

كانوا غاضبين ويصبون جام غضبهم على حاتم المحتضن الأرضَ، ملابسه تمزقت وتعفرت بالتراب وسال الدم من فمه وأنفه، لكنه رغم ذلك كان صامتاً، ملامحه ونظراته توحي بأنه كان مستعداً لهذه اللحظة منذ زمن طويل.

أمسكوه ورفعوه على سيارة الدفع الرّباعي مع آخرين، ثم انطلقوا

بهم إلى المعتقل. ظل في معتقل موقف شندي أياماً، يُعرَّض خلالها للضرب المبرِّح وحرمان النوم والطعام.

بعدها نقلوه برفقة حسام وآخرين إلى سجن في مدينة الأُبيِّض، هناك أحسوا ببعض الراحة من الضرب، لكنهم ظلوا يحرمونهم النَّومَ، وعندما نقلوهم إلى السجن في مدينة كسلا حدث العكس، كانوا يتركونهم ينامون لكن ببطون خاوية وأمعاء تتمزق وجِلْد يتقرح بفعل الضرب.

قبل أيام من الاعتصام أعِيدوا إلى سجن موقف شندي، وهذه المرة توقف الضرب والتعذيب لسبب يجهلونه، لكنهم ظلوا محتجزين في غرف متجاورة باردة ومظلمة.

في يوم السادس من أبريل، كانت أصواتُ التلفزيونات تأتيهم من المكاتب المجاورة للزنازين. أحسوا أن هناك أمراً ما؛ يحدث، لكن لا يعلمون ما هو، فأخذوا يستدرجون حارساً قليلَ الذكاء حتى وقع في فخ استعطافهم وسيل مديحهم الكاذب.

سألوه بإلحاح عمَّا يحدث في الخارج. ورغم وقع التحذيرات التي تتلى على مسامع هؤلاء الحراس عادة من قادتهم، فإنَّ الرجلَ قليلَ الذكاءِ انهار في النهاية وأخبرهم أن الحشد للموكب كان كبيراً، وقد وصل المتظاهرون إلى أبواب القيادة، ويبدو أنهم قد نووا الاعتصام هناك.

ثم توقف عن الحديث فُجَاءَةً عندما أحس بجريرته وفعله الموجب للعقاب، بلع ريقه عِدَّة مرات ثم انسحب بسرعة واختفى.

في صباح ذات اليوم، استدعي حسام. أخبره الحارس قليلُ الذكاء بأن لديه زيارة من أقاربه.

تحت أنظار الحارس، دخل حسام إلى الحمام ليبدل ملابسه، بعدها خرج برفقته ماشياً عبر الممر الطويل الذي تطل عليه بقية الزنازين، وكانت مثل تلك اللحظات فرصة جيِّدة للسجناء، للحديث مع من تأتيه الزيارة على غفلة من الحارس، يتبادلون أحياناً علب السجائر وأكياس التبغ وبعض المال، يمررون الرسائل المكتوبة على أوراق صغيرة، عليها وصية ورقْم هاتف لأحد الأقارب، حتى يعلم عن مكان أحدِهم، فلم يكن جهاز الأمن يعترف بوجود جميع المعتقلين لديه، كما حدث مع حاتم تماماً.

في أثناء مرور حسام من أمام زنزانة حاتم، تبادلا النظرات للحظات، توقف الحارس ليحادث أحد المعتقلين في الزنزانة المقابلة، والذي احتج على أنه لم يحصل على دواء الضغط منذ البارحة، ذلك أتاح الفرصة، كي يواصل كل من حسام وحاتم النظر في عينَي الآخر.

أحس حسام أن لدى حاتم ما يقوله فاقترب من زنزانته قليلاً، حينها رمى له حاتم ورقة صغيرة مطبقة فالتقطها مباشرة ووضعها في جيبه، ثم حاول أن يلتقط الكلماتِ المبهمة التي همس بها حاتم لكنه أخفق في ذلك، وفي تلك اللحظة انتبه الحارس فزجره وأمره أن يتحرك نحو الأمام ففعل.

عندما وصلا إلى الصالة، قابل حسام والده في حين وقف الحارس بعيداً يراقب، بعد تبادل التحية، دنا حسام من والده وأخرج الورقة، كان عليها رقْم هاتف، تذكر حسام آخر رقمين وقد كانا بالفعل آخر رقمين من أرقام هاتفي، لكن في تلك اللحظة حانت التفاتة من الحارس فرأى الورقة، جاء مسرعاً وخطفها ومزقها.

لقد أراد حاتم من حسام أن يجعل والده يتصل بي ويخبرني بمكانه، ذلك جعلني أسأل نفسي في حَيرة، لماذا لم يرد حاتم أن يتصل بأمه أولاً، هل أراد أن أتولى زمام الأمر بنفسي، يعلم جيّداً أنني لن أفرط في أمه، ولن أرتاح حتى أخرجه من المعتقل.

أسعدني حقاً أنه وثق بي دون الجميع، ما دام فعل ذلك كثيراً.

لكزني أمجد بيده فعدت إلى رشدي وطارت كل خيالاتي، انتبهت إلى أننا وصلنا إلى المحطة أخيراً، حملت حقيبة أمجد بكلتا يدي ونزلنا ثم سرنا نحو البيت بخطىً مرهقة، لقد كان يوماً طويلاً ممتلئاً بالتفكير والمشي.

ما إن وضعت رأسي على المِخدَّة حتى انتفضت جالساً، ظل قلبي ينبض للحظات قبل أن أحمل هاتفي وأتصل بأم حاتم، سألتها وأنفاسي تتصاعد:

- هل عاد حاتم إلى البيت؟

أجابتني بصوت مصدوم:

- هل فكوا قيده؟ هل تعرف عنه أي شيء، أرجوك لا تكذب عليَّ.

ظللت صامتاً للحظة، تذكرت ما قاله حسام، لقد فكَّ قيدُ المعتقلين في يوم الاعتصام، لقد مرَّ على فكِّ قيدهم يومان تقريباً، لماذا لم يعد حاتم إلى بيته وأمه.

قاطَعَت أم حاتم صمتي قائلة في انزعاج بائن:

- تحدثْ، ماذا هناك، هل خرج حاتم من المعتقل؟ هل عثرت عليه في مكان ما؟

افتعلت ضحكة فارغة المعنى، وقلت لها:

- أردت أن أسمع صوتك فقط يا سيدتي لأطمئن عليك، ليس لدي أخبار عن حاتم، لكن لا شك سيعود قريباً.

أغلقت الهاتف والكثير من الأسئلة تجول في رأسي، لم أفهم أبداً فلسفة حاتم في عدم عودته إلى البيت حتى الآن، ما الذي يؤخره عن تطمين أمه، أو حتى الاتصال بي وتحميلي رسالة إليها، ما دام يحفظ رقم هاتفي.

كل الذين كانوا معه في المعتقل عادوا إلى منازلهم دون شك، واحتضنوا أمهاتهم وقبلوا جباههن، لماذا لم يفعل حاتم ذلك؛ وأمه تنتظره على أحر من الجمر.

بالتأكيد، لن تعترض أمه إن أراد العودة إلى الاعتصام، ومواصلة التظاهر كما فعل حسام قبله، فما مرَّت به أمه خلال الشهور الماضية غيَّر فيها الكثير، وجعل تفكيرها يتغير وينحاز إلى الثورة، حتى إنها تريد أن تذهب إلى ميدان الاعتصام، لتهتف مع الثوار.

لا أظن أن هناك ما يسوِّغ فعلته هذه، سوى أنه لم يخرج بعد من المعتقل، لكن حسام أكد بأنهم قد خرجوا جميعاً. أصابني صداع حاد عجزت بعده عن التفكير، بلعت عِدَّة أقراص مهدئة ثم نمت.

قابلت حسام من جديد، ولكن على عجالة بعد أن أكلت الحَيرة عقلي وجعلتني مضطرباً، لا بدَّ أن أخطو خطوة تزيل عني هذا الرهق، وتعيد التوازن القديم إلى حياتي على قلته، أخذت منه أرقام هواتف بعض زملاء حاتم في المعتقل، عسى أن يدلني أحدُهم على طريقه، أو يخبرني بأنه لم يخرج بعد من معتقله.

كلفني ذلك الليل بأكمله، لم أغفل دقيقة واحدة؛ ولم أنهض حتى لأشرب، اتصلت بهم واحداً تلو الآخر، تباينت إجاباتهم فأصابتني بالتشتت، جعلت قلقي يزداد وأرقي يستمر حتى الصباح.

بعضهم تذكر حاتم ووصفه وصفاً كاملاً وبعضهم ظنني أهذي؛ لأنَّهم لم يقابلوا أحداً بهذا الاسم والصفة من قبل.

لم أحصل منهم على أي تطمينات، بل المزيد من الذعر والقلق فقط.

شعرت باليأس والألم يلتهم كامل جسدي.. في تلك اللحظة وجدتني ألقي باللوم على حاتم، وانتابني بعض الغضب ناحيته، لماذا هو بالذات لم يعد وسط هذا الكم من المعتقلين، ماذا يدور وأنا لا أدري عنه، أو بالأحرى ماذا يدور في ذهن حاتم نفسه فيجعله لا يعود.

جلستُ في المساء مع أمجد نشربُ الشَّاي بالبسكويت، قال أمجد محاولاً تحليل الموقف:

- ربما أراد الظهور بعد التغيير.

توقفت عن مضغ البسكويت للحظات، فكرت في كلامه فوجدته مجرد هُرَاء خاوٍ من المعنى، فعدت إلى المضغ من جديد، لكنه قاطع فعلي ذلك قائلاً في حزم:

- لقد رأيت أمثال حاتم كثيراً. يندمجون مع الحدث فيصير جزءاً من أجسادهم ويصيرون جزءاً منه.

قلت:

- وهل تتوقع أن ينسى أمه؟

قال:

- لن ينسى تماماً، لكن الأمر العظيم الذي يخوضه سيجعله بعيداً عنها، صدقني لن يعود حاتم ما لم يسقط النظام، لا بدَّ أنه يعمل لذلك الآن، لا داعيَ لكل هذا القلق، سيعود لاحقاً؛ صدقني.

قلت في يأس:

- ولكن بعض رفاقه في زنازين الاعتقال أنكروا رؤيتهم له.

قال:

- وبعضهم تذكره، تحيرني سذاجتك، تخيل مئات الأشخاص يُعرضون للضرب يومياً ويحرمون من الطعام، حياتهم كانت جحيماً لشهور عديدة، لن يتذكروا شيئاً سوى أمعائهم الخاوية والقليل من الأشخاص.

وضعت كوب الشاي على الطاولة بعد أن ارتشفت آخر قطرة فيه، تنفست بعمق، رحت أفكر في حديث أمجد بجدية، ربما أراد حاتم أن يستخفي عنَّا عنوة، ويظهر في أرض الميدان لا يبرحها قبل أن يصل إلى الهدف، الذي خرج من أجله قبل أشهر، وذاق بسببه المرارة والألم.

بإمكاني أن أندمج في خضم حلم ما، لكنه لا ينسيني من أكون إطلاقاً، ولا أظن حاتماً بذلك الجنون الذي يدفعه لهجران أمه هكذا، لكن المهمّ في الأمر أنه بخير، سأتجاهل إفادات رفاقه الذين أنكروا معرفتهم به، ربما حدث معهم ما قاله أمجد، ألم بطونهم جعلهم لا يتذكرون سوى الطعام، نسوا كل شيء في لحظة.

ثم هُيئ لي أن حديث أمجد، لا يعدو أن يكون مجرد تطمينات، فأحسست بالصداع وكأن أحداً يمزق عقلي بسكين.

عليَّ أن أوقف هذا التُفكير السُلبي، لكنه لا يتوقف، كل فكرة تمسك بذيل أختها التي سبقتها، فكرة تلو الأخرى؛ لا شك سينفجر عقلي.

نهضت وطلبت من أمجد أن نخرج لنتمشى قليلاً على الرصيف، تقت فُجَاءَةً إلى المشي تحت أضواء أعمدة الإنارة الباهتة، وسماع قهقهة المجانين المختبئين خلف حاويات القُمامة.

صفعت أمي الباب بقوة، فاستيقظت أنا وأمجد مفزوعيْن وقد طار ما حط داخل عيني من نُعاس البارحة.

صَرَخَت بقوة:

- تعال لترى ما يحدث في التلفزيون.

نظَرْتُ إلى فتحات النافذة، بدا الضوء خافتاً وهو ينفذ عبرها، إذ يبدو أن بقايا الليل لم تنجلِ بعد، أخرجت هاتفي من تحت المِخدَّة، نظرت إلى السَّاعة ثم إلى التاريخ، الحادي عشر من أبريل، خمنت أنها ليلة أخرى من محاولات جهاز الأمن البائسة لفض الاعتصام، والتي لا تخلف سوى المزيد من الشهداء.

عادت أمي مجدداً للصراخ:

- قلت لك تعال لترى، سيذيع الجيش بياناً بعد قليل.

شهقتُ في انفعال ونظرت إلى أمجد الذي كان يدافع النوم عن عينيه، ثم قفزنا وجرينا إلى الغرفة الأخرى، حيث التلفاز الصغير يتوسط أعلى الطاولة الخشبية.

ظللنا جالسين أمام التلفاز ساعات في انتظار البيان الذي يظهر إعلانه أسفل الشاشة، في النهاية أحسسنا أن انتظارنا سيطول، فخرجنا قاصدين القيادة العامة للجيش، أردنا أن نشاهد الاحتفال على أرض الواقع، خاصة بعد الأخبار التي انتشرت تقول إن البشير ربما قُتل، أو تحت الإقامة الجبرية بأمر الجيش.

اختلطت المشاعر في صدري، فأحسست أنني أخف من الريشة؛ أطير في الهواء، قرصت يدي لأتأكد أنني لا أحلم ولم أشعر بشيء، ثم استسلمت لهذه المشاعر التي أفقدتني إحساسي بالألم، فإن كان هذا حلماً، فأرجو أن أعيش فيه إلى الأبد.. كنت في حاجة إلى أن أفرغ طاقة الفرح تلك في مكان يستحق، بدل أن أفرغها في البكاء الذي بدأت منازعته.

(يا لنا من مجانين) هذا ما قاله أمجد، عندما انتبهنا إلى أننا قطعنا عشرات الكيلومترات سيراً على الأقدام من غير أن نشعر بالتعب، لا نحمل قارورة ماء أو طعام، لم نشعر بحرارة الشمس التي بدأت تستعر بالتدريج، كنا نهتف فقط ونسير وسط جمع بشري كبير.

دخلنا إلى القيادة مع بداية إعلان البيان، تجمهر الناس جماعات حول أجهزة الراديو، فتح أصحاب السيارات أبوابهم مطلقين العنان لصوت المذيع، وهو يعلن أن أحد جنرالات الجيش سيذيع البيان الآن.

رغم الصخب الذي كان يعم ميدان الاعتصام عادة، وكل المَنطقة الممتدة حوله، فإنَّ تلك اللحظة شهدت هدوءاً عجيباً.. صمت الجميع ليستمعوا إلى البيان.

أخرجت هاتفي ثم فتحت مكبر الصوت حتى يسمع أمجد، وبعد لحظات بسيطة وجدتني محاطاً بالعشرات يصغون في تمعن إلى البيان، بدا لي المشهد مضحكاً إذ لم يحدث في وقتنا الحاضر، أن اجتمع هذا العدد من الناس إلى أجهزة الراديو مثل ما حدث هذا اليوم.

بعد انتهاء البيان، لم يكن الرضا يكسوا أكثر الوجوه حولي، وسرعان ما تحول السخط إلى هتافات ضد قادة الجيش، الذين أرادوا أن ينفردوا بالسلطة.

حينها شعرت بخيبة أمل، كان أحد أسباب سعادتي بهذا اليوم؛ هو أملي في عودة حاتم أخيراً، فلم يعد هناك ما يمنعه من الظهور، وإن كان معتقلاً فسيخرج لا شك.

تملكني الإحباط وأنا أرى الهتافات تعود لتعانق السماء من جديد، احتقان جديد يتخلق من اللاشعور أو التخطيط، كل الذين نشطوا في نضالهم، رأيتهم محمولين على الأعناق، ليحمسوا الجموع على البقاء في ساحة الاعتصام وعدم المغادرة.

انسحبت من وسط الساحة ورأسي يكاد يلامس صدري، تبعني أمجد محتاراً:

- إلى أين تذهب؟

أجبته بأنني عائد إلى البيت، لم أعد أستطيع تحمل المزيد فعاد برفقتي مجبراً.

دخلت إلى غرفتي ثم أغلقت الباب، رقدت على السرير ثم غطيت رأسي بالمِخدَّة، وبوادر الصداع تسري في رأسي، يبدو أن هذا

الوضع سيستمر طويلاً، لا نخرج من آفة حتى نقع في أخرى، لا أمل يلوح في الأفق.

تمنيت لو أن كل هذا لم يحدث، ماذا لو أنني نمت ثم فتحت عيني، لأجد كل شيء قد عاد إلى طبيعته.. لو أن الحكام يتنازلون عن الحكم بعد أن يفطنوا إلى أنهم عجزوا عن إدارة البلاد؛ لما كان لأحد أن يعاني بسببهم، لكنهم أنانيون، تغير السلطة قلوبهم وتجعلهم يعبدون الكرسي فقط لا غير.

وددت لو أن كلَّ الناس عادوا إلى طبيعتهم التي أعرف، الآن كل السائرين في الطرقات يملأ الغضب وجوههم، بعد أن كانت لا تفارقها ابتسامة البسطاء الجميلة، يملأ الحزن قلوبهم الفقيرة، ولا يتحدثون سوى في السياسة وتعقيداتها التي هم في غنىً عنها، متناسين سلة الخضراوات وصفوف الخبز التي أثقلت كاهلهم.

بعضهم روحه ثورية، لكنه سئم من إغلاق الطرقات وسماع أخبار القتلى والمفقودين، فينحاز أحياناً كثيرة إلى آخرين؛ يرون أن الجيش أحق بالبقاء في سدة الحكم في هذه الفترة، وعلى الساسة العودة إلى بيوتهم. كثُر الكلامُ وتبدل وما عاد شيءٌ كسابق عهده.

قضيت داخل غرفتي أياماً لا أرى ضوءَ الشمس، انعزلت حتى عن أمجد الذي كان يطيل البقاءَ في القيادة ويبيت هناك أحياناً، صرت مسجوناً بإرادتي، ولو كان الأمر بيدي لطلبت أن أفقد ذاكرتي، التي أتعبتني بالتفكير والذكريات، أو لطلبت أن أعود طفلاً حتى لا أجعل قيمة لأي حدث يخلو من اللعب والجري خلف الكرة.

أوقفت البحث عن حاتم تماماً، لم يعد ذلك مجدياً حسبَما أرى، طمأنت نفسي إلى أنني ربما أرغب في البحث عنه، لكن لاحقاً لو هدأت الأحوال التي تتصاعد باستمرار، وعادت إليَّ الروح التي أفتقدها الآن، ذلك جعلني ألتصق بغرفتي أكثر.

فقدت الأمل في كل شيء يحدث في الخارج.

في بعض الأحيان كنت أفتح هاتفي لأتابع ما يحدث في مواقع التواصل، أفعل ذلك بعد أن تحاول أمي إجباري على الخروج من الغرفة، ومتابعة أخبار الاتفاق بين الجيش والأحزاب على شاشة التلفزيون.

تظن أن ذلك سيساعدني قليلاً في تجاوز محنتي، لكني لم أكن أرى تقدماً، ألوح لها بهاتفي وأقول سأتابع الأخبار هنا، أجد فيه كل ما أحتاج.. لن أخرج من الغرفة.

ولم أكن أقرأ كثيراً في مواقع التواصل، فبالتأكيد فقدت طول البال الذي أفخر به دائماً، أقرأ فقط بعض البيانات المبتورة والتحليلات السمجة للأحداث.

لا أشعر بانشراح قليل في الصدر، إلا عندما أرى مقطعاً لا تتعدى مدته دقيقتيْن حول مواكب تجوب الخرطوم من دون أن يمسها أحدٌ بسوء.. لقد سقطت الترسانة الأمنية تماماً، أو فلنقل توارت عن الأنظار قليلاً.

وصلت هذه المواكب إلى القصر الجُمهوري ومبنى البرلمان من دون أن يعقها أحد.

اتصلت بي أم حاتم، ترددت كثيراً في الرد عليها، لكني لم أستطع تجاهلها، حملت هاتفي ورددت، فأتاني صوتها شاحباً أكثر من المعتاد، عندما سألتها عن صحتها تجاهلتني وراحت تسألني هي عن صحتي، أخبرتها أنني بخير، ثم أعدت عليها السؤال؛ إن كانت بخير.

- أنا بخير، فقط أعاني من بعض الآلام في ذراعي الأيسر وجزء من الصدر، لكني بخير، يحدث ذلك عادة عندما أحمل شيئاً ثقيلاً. قالت ذلك ثم غيرت موضوع النقاش.

تحدثنا نصف ساعة، وقد أدهشني أنها بدأت تكون رأيها الخاص فيما يحدث، تلك المرأة في نهاية الخمسين، ولم تكن تهتم بأمر السياسة من قبلُ، صارت الآن محللة بارعة للأحداث.

الأحداث التي تدور حولنا أحياناً كثيرة، لا نلتفت إليها إلا عندما تصيبنا سياطها.

لم يعد حديث أم حاتم يتمحور في عودة ابنها فقط، بل أصبحت تعرف كل النافذين وفرق التفاوض العسكرية والمدنية، لديها رأي صريح في كل واحد منهم، والأهم من ذلك أنها الآن باتت ترى ابنها بطلاً قومياً.

أخرجني أمجد وهالة من ظلمات غرفتي بالقوة كما قالا، والأحرى أنني لم أقاوم واستسلمت تماماً، لعلمي أنهما ربما يحلان معضلتي قليلاً، في الأيام الماضية تفاقمت أزمتي النفسية، لكني كنت أعرف الخلل وأعرف علاجه.

كان من الضروري أن أخرج من هذه القوقعة الاختيارية، مع

رهق الصيام واقتراب عيد الفطر، لعلي أحصل على بعض التحسن، ولعلي أقبل اعترافي أن الأمور لا تسير كما أريد.

لم يكن هناك من خيار سوى الذَّهاب إلى ساحة الاعتصام، كانت لتبدو فكرة جيِّدة في السابق، لكن الآن بدأ ألق الاعتصام يخفت قليلاً مع كل شهيد يسقط بلا سبب، أو تصريح سياسي يعيد المفاوضات إلى نقطة الصفر، إلا أنني وافقت على الذَّهاب إلى أرض الاعتصام، لعلي أجد بعض العزاء هناك.

ولم أستطع الصبر أكثر من ساعة داخل أرض الاعتصام، حرارة الجو تحثني على الفرار أكثر من عقلي المشوش بالأفكار، واستغربت من كل تلك الجموع، ألا تشعر بما أشعر به؟

يجلس الناس في الهجير يهتفون بحلوق صائمة وجافة، يحمل بعضهم بخاخات الماء ليرشه على وجوه البقية فيخفف عنهم، وبعضهم يحتمي بالظلِّ الكاذب الذي تبثه الأشجار قليلة الحيلة، لكن لا يظهر على وجه أحد الضجر.

أكثر ما حيرني هم أولئك الصبية المتجمهرون أعلى النفق وسط ميدان الاعتصام تماماً، يتحملون حرارة القضبان العالية، يطرقون على جُدُر السِّكة الجانبية لتخرج تلك السيمفونية العجيبة بلا ضابط للإيقاع أو مؤلف، هذا الفعل لا يتوقف صباحاً ولا مساءً.

الطرق عنيف لكنه لم يكن مزعجاً، لا يكتمل يوم المعتصمين إن لم تطرب آذانهم المعزوفة القادمة من أعلى النفق، فينظر أحدُهم إلى الجوقة هناك ويرفع يده ملوحاً.

أغلب هؤلاء الصبية لا تتجاوز أعمارهم العشرين في الأرجح، لم يرهم أحدٌ من قبل إلا في أعلى النفق، ولم يرهم أحدٌ من قبل يأكلون أو يشربون أو حتى يرمشون، متى ما دخلت أرض الاعتصام تراهم، فجراً أو ظهراً أو عندما يحلك الليل.

شعرنا بالتَّعب فجلسنا أمامَ إحدى خيام الجيش أمام بوابة القيادة، كنا عاجزين عن الحديث، لذلك اكتفى أمجد وهالة بالتحديق. كلٌّ في اتجاه يخصه، أما أنا فكعادتي انغمست في وحل أفكاري.

راودتني أفكار سيئة عن مصير هذا الاعتصام، طال أمده ومن ثَمَّ يصبح من السهل اختراقه. لم يعد ميدان الاعتصام كما كان، بعد أن استتب فيه الأمن جذب أناساً لم يكونوا يوماً ثواراً حقيقيين، وأصبحوا من صانعي القرار داخله.

جذب اللصوص أيضاً ولم يعد كالسّابق، فإن ترك أحد هاتفه ليعود بعد ساعة؛ فلن يجده في مكانه.

قطع حبل أفكاري طفل صغير يحمل منشورات صغيرة في يده، وزع منها على ثلاثتنا، قرأتها فوجدتها دعوة لإقامة صلاة العيد في القيادة، قلت:

- هل تظنانها فكرة سديدة؟ أظنُّ أن من الأفضل أن يصلي كل أحد في مسجد حيه، ثم يخرج الناس في موكب كبير نحو القيادة.

قالت هالة:

- ماذا عن الذين يسكنون بعيداً؟

نظرنا إلى أمجد وقد توقعت أن يكون رأيه مختلِفاً، قال:

ـ الصلاة في أرض الاعتصام ليست مجرد صلاة، فيها رمزيَّة كبيرة، هل تصدق؛ لو وصلت هذه الدعوات إلى الجميع ستكون هذه أكبر صلاة في تاريخ السودان، لم يسبق أن اجتمع قرابة مليون سوداني في صلاة واحدة، انظر عندما يحدث ذلك؛ كيف سينظر أعداء الاعتصام إلى هذه الصلاة؟ تخيل كمّ الانكسار الذي سيشعرون به.

بعد ساعات من الجلوس نهضنا لنكمل جولتنا في الميدان، كانت الشَّمس أمامي قد اصفرَّت تماماً، وبعد عناء يوم طويل أرهقت فيه جباه المعتصمين بدأت الأفولَ، شعرت حينها بأن علينا المغادرة، تملكني التعب تماماً.

عدت إلى غرفتي وارتميت على السرير بعد أن فقدت عضلات جسمي مرونتها، لكن الضغط الذي كنت أحس به قد خف كثيراً، وتحسنت حالتي إلى حدٍّ كبير، إلا أن تلك الشائعة البغيضة التي سمعتها قبل أن أخرج من ميدان الاعتصام، لا تزال تنقر على قلبي، ورحت أتقلب في السرير يمنة ويسرة، عَلّي أتخلص منها، لكن لم أستطع.

حاولت أن أقنع نفسي بخلاف ذلك، لا يمكن لأحد أن يجرؤ على فض الاعتصام بالقوة، لماذا يتحدثون عن قوات تتحرك نحو ميدان الاعتصام، مثل هذه الشائعات تفعل في قلوبنا الكثير.

ظللت ساعات مستلقياً دون أن يغازل عيني نُعاس، ومن دون أن تنطفئ نيران التَّفكير المشتعلة في رأسي، تلك المزحة الثقيلة اللزجة التي روج لها بعضهم، بدأت تنافس الأثر الطيب الذي تركه فيّ هذا اليوم، وزاد تقلبي في السرير بلا بصيص نوم.

مرّ الوقت في بطء شديد، تملكني الأرق والتعب فنهضت، كانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع مساء، جلست أمام التلفزيون الذي كان يغطي أرض الاعتصام على مدار الساعة، ورحت أراقب باهتمام، كأنني جندي حراسة متجول، كانت ضربات قلبي تزداد كلما مرّت الدقائق.

في حدود الفجر، تنفست الصُعداءَ قليلاً، وشعرت بِنُعاس مباغت فوضعت يديَّ على سواعد الكرسي لأرفع جسدي المنهك وألقي به على السرير، في تلك اللحظة اخترق أذني صوت رصاص كثيف فنظرت ناحية التلفزيون.

سقطت على الكرسي عندما رأيت العساكر، وهم يقتحمون ميدان الاعتصام من جهة شارع النيل، كانوا بالآلاف ترافقهم أصوات الذخيرة والنيران، ظللت متجمداً للحظات ثم أظلمت الدنيا حولي، وفقدت قدرتي على الاستيعاب، كنت أشبه بمن أغمي عليه.

لم أستعد رشدي إلا وأنا أرى خيام الاعتصام وهي تشتعل، وسيارات المعتصمين التي ينقلون عليها معيناتهم، قد تحولت إلى هياكل حديدية ساخنة.

ظللت أتابع الكرَّ والفرَّ بين الثوار والعساكر حتى الظهيرة، ثم حملت جسدي المنهك وخرجت إلى الشارع، رأيت دخان الإطارات المشتعلة يملأ كل الفضاء حولي، يبدو أن رد الفعل قد بدأ أخيراً، وتحولت كل الأرض إلى اعتصام مفتوح، أغلقت فيه كل شوارع العاصمة.

أحلام كثيرة وُئدت تلك اللحظة، وكل الذين منوا أنفسهم بأكبر صلاة للعيد في البلاد قد ماتوا الآن.

مرت أيام وأنا مشدوه ومتعب. لم أستوعب ما حدث تماماً، ولكن لم أجد المفر من الاعتراف بحدوثه. قلت لأمجد الذي ظل يلازمني كل تلك الأيام:

- هل تذكر عندما كنا نقول إن أيام النظام السابق هي الأكثر سوءاً، هذا الوقت عصيب أكثر من تلك الأيام.

ربت أمجد على كتفي وقال:

- بالتأكيد، كنا نقول ذلك، لكن دائماً هناك أيام سيئة في الانتظار، هكذا يعمل هذا الكون ويسير ناموسه، ليس علينا سوى الانقياد للنجاة.

قلت:

- ولمَ لا نقاوم هذا الانقياد؟

قال أمجد:

- انقيادك لا يعني استسلامك. لا؛ بالعكس، عندما تأخذ بأسباب ما يحدث تستطيع أن تطوعه، بؤسك هذا لن يعيد الأموات ودمعك إن نضب لن يُحدث خلاف ما حدث، لكن تقبلك لما يحدث حولك ومجاراتك له هو انقيادك مع الناموس، كل الذي يدور الآن ستراه قريباً من منظور آخر، وستكتشف أن نتائج انفعالاتنا كانت كارثية، وانقيادنا وأخذنا بالأسباب جاء بما نريد وأعاد الحقوق.

المؤلم حقاً أنني لا أملك صورة شخصيَّة في ميدان الاعتصام، التقطت بكاميرا هاتفي صوراً كثيرة، لنَقُلْ إنني صورت في المرات التي زرت فيها الميدان؛ كل ما وقعت عيني عليه، حتى القمامة التي

كانت تُجمع في مكان واحد قبل ترحيلها قمت بتصوريها، وكل تلك الصور لم أظهر في أيٍّ منها.

لم أفكر في الوقوف لثوانٍ قليلة لألتقط لنفسي صورةً، أو أجعل أمجد وهالة يلتقطان لي صورة، أحفظ بها حقي في التفاخر أمامَ الآخرين ذات يوم.

مع كل صورة التقطها كنت أتذكر أنني لم أوثق لوجودي هناك بعد، فأقول في قلبي أنني سأفعل ذلك في مرة أخرى، وهذه المرة الأخرى لا تأتي أبداً.

التقطت لهالة عدة لقطات وهي تتجول، في بعض الصور تظهر وهي تحمل لافتة يوم موكب المحامين، بدت فيها جميلة لحدٍّ يفوق التصور، والتقطت لها صوراً وهي تتكئ على يدها ناظرة بعيداً نحو مجموعة الصبيان أعلى النفق، لكن لم نلتقط صورة تجمعنا معاً.

أعلم تماماً السبب الذي كان يدفعني في كل مرة إلى تأجيل الصورة، كنت أظن أن الاعتصام لن يذهب أبداً، لذلك دائماً هناك فرصة غداً، وما دام أن هناك فرصة فلا داعيَ للقلق.

هكذا كان عقلي يفكر، لم يكن عقلاً يستطيع وزن الأمور بصورة حقيقة غير مثالية ومتماهية في مثاليتها الزائفة، فكل الإشارات كانت تقول إن نهاية الاعتصام ربما لن تكون محمودة، ما دامت أطماع السلطة بدأت تناوش أفئدة العسكريين والمدنيين قبل العبور إلى بر الأمان.

إذا عاد بي الزمن إلى ذلك اليوم الأخير قبل فضّ الاعتصام، سألتقط

لنفسي ألف صورة، لأن الأشياء الجميلة في هذه البلاد لا تدوم طويلاً، أنا مقتنع بذلك الآن أشدَّ الاقتناع.

كنت أيضاً سأبيت تلك الليلة، ليلة الثالث من يونيو؛ والتاسع والعشرين من رمضان، ليس لأواجه الرصاص، لأني أجبن من أن أقف أمام الرصاص بصدر عارٍ، بل لأدفع الثوار بعيداً عن أبواب القيادة العامة للجيش، سأصرخ في وجوههم أن للشجاعة حدوداً، مواجهة الرصاص بصدور عارية ستجعلكم أنصاراً جدداً في معركة «كَرَري» القرن الحَادِي والعشرين، وستنفطر قلوبنا عليكم إلى الأبد، لكن فات الأوان الآن.

كل شيء ذهب بلا عودة؛ الشهداء الذين سقطوا بعد أن رفضوا التراجع والفرار من أمام الرصاص.. الصبية أعلى النفق الذين لا تكل أياديهم عن ضرب الحديد بالحجارة.. رواد مِنطقة كولومبيا من أصحاب المزاج العالي.. العيادات الميدانيَّة التي لا تتوقف عن العمل على مدار الساعة.. قدور الطبخ الكبيرة والعالية التي صنعت شتى أصناف الطعام البلدي على مدار أيام طويلة من دون أن تنطفئ نارها.. ثوار الليل الذين يأتون بغتة.. الإذاعة الداخلية التي تلهب مسامع الثوار بأغانٍ ثورية وحماسية.. كل شيء ذهب وبقيت ذكراه فقط.

الأذكياء وحدهم من انتبهوا إلى توثيق وجودهم هناك، ويؤسفني تماماً أنني لم أكن حصيفاً بما فيه الكفاية لأفهم.

عندما أتنقل بين الصور أرى بعض الأصدقاء الذين التقيتهم في ميدان الاعتصام، أكلت برفقتهم واستأنست بوجودهم، توطدت علاقاتنا فتداخلت قلوبنا وأشواقنا، بعضهم مات بالرصاص ذلك اليوم،

وأكاد أجزم أن السيارات العسكرية التي تجوب الشوارع كل يوم مطلقة النار في الهواء؛ ما هي إلا محاولة لإرغامنا على النسيان، لكن لن ننساهم لمجرد خوفنا من زخات الرصاص اليومية.

يظنون أننا لا نعرف هذا الجنرال المزعوم، الذي خرجت به تقاريرهم تتهمه بفض الاعتصام، لأنهم لم يكشفوا عن اسمه، نحن نعرفه جيداً ونعرف اسمه وملامحه، يظن أنه إذا مسح الدماء عن الأرض فإننا لن نراها.. سنظل نراها طازجة وساخنة.

ذكرى أولئك الأصدقاء، ستظل متقدة، لأن الزمن عندنا لا يزال واقفاً عند ساعات الصباح الباكر من ذلك اليوم.

عند الظهيرة بعد انقطاع شبكة الإنترنت انقطاعاً نهائياً بأمر من المجلس العسكري، جلسنا تحت ظل الباب نسلي الضجر الذي أخذ يقضم أطرافنا في تمعن.

قال أمجد محاولاً إيجاد موضوع نناقشه:

- ربما حان الوقت لتشتري هدية لهالة.

قلت بعد أن تداولت الأمر بيني وبين نفسي:

- أجل، لقد أهملتها كثيراً مؤخراً، ولكن في مثل هذه الأحوال، كيف تفكر أنت؟

قال:

- الناس لا يتوقفون عن الحب عند أي ظرف، وإلا كيف تراهم يعيشون؟

صمتُ للحظات، استحسنت حديثه وجالت بخاطري عشرات الأفكار، نهضت ودخلت إلى البيت، ارتديت ملابسي ثم خرجت، كانت الشمس قد أحالت الأرض تحت أقدامي إلى قطعة حمراء من الجحيم.

وصلت إلى الشارع الرئيس وكأني أراه لأوَّل مرة منذ مدة طويلة، على أطرافه قطع إطارات أكملت اشتعالها ويتصاعد دخانها الطازج متبدّداً في الفضاء، وسيارة عسكرية تمشط الطريق من أوله إلى آخره، ينزل أفرادُها من حين إلى حين، ليزيلوا بعض المتاريس التي يضعها صبية الحي، حتى يُفتح الطريق أمام السيارات.

ركبت الحافلة نحو سوق أمدرمان، أحسست بأنها مجازفة، لكن لا ضير من خوضها.

كان جميع الركاب صامتين مطرقين رؤوسهم نحو الأسفل، كأنهم ذاهبون في رحلة عمل ثقيلة، وهو ما لم يكن يحدث قبل شهر من الآن.

بدا لي أن بعضهم فَقَد الثقة في البعض الآخر، هامش الحرية الذي شعروا به بعد التغيير تبخر كالماء الآن، حتى النقاشات المتحفظة، التي كانت تحدث في زمن سابق اختفت أيضاً.

حادثة الاعتصام استدعت في عقولهم الماضي الأليم، وقت كان صاحب الرأي يُعرَّض للاعتقال، لمجرد كلمات بسيطة قالها في الحافلة.

نظرت عبر النافذة، فلمحت بعض الشباب الملثمين يكتبون على حائط إحدى البقالات، لمحت جزءاً من الدعوة التي يكتبونها عن موكب قادم، شعرت ببعض السرور، لأن هناك من لم يفقد الأمل فقداً نهائياً، وعلاوة على ذلك يدعو إلى موكب جديد.

عدلت مكان جلوسي في الحافلة وأصبحت ملاصقاً للشباك، رحت أراقب الحوائط القريبة من الشَّارع، لعلي ألتقط خبراً آخر عن الموكب القادم، لكن بلا فائدة.

هذه المرة الأولى التي لا أشعر فيها بالضيق عند سماع الدعوات لموكب ما، فقد كنت متأكداً أن هذه النهاية التي أرادوا، لا تصلح أن تكون نهاية لهذه الثورة العظيمة، حكم عسكري آخر؟ لا يمكن أن نخبر الشهداء بهذا عندما نقابلهم ذات يوم، تخيل حجم العار الذي كنا سنحس به.. لا بدَّ من لحظة فارقة تعيدنا إلى المسار، ولا بدَّ من تبعات لما حدث.

يبدو أن هذا الموكب الجديد، لن يقل قيمة عن موكب اقتحام القيادة الذي أزال الرئيس ونظامه.

السوق نفسه على قلة رواده، لم يختلف عن الحافلة كثيراً، كان الجميع صامتين أقرأ في وجوههم أسئلة كثيرة مذعورة.. ويفكرون بعد أن وصلوا إلى هنا، كيف سيعودون، هل سيجدون حافلة ومنفذاً عبر الشوارع؟

كانت أغلب المحالّ مغلقة، تحدث رجل مرَّ بالقرب مني عن العصيان المدني، تجولت بين المحالّ المغلقة، حتى عثرت على محل حُلي، يشرع صاحبه في غلق بابه.

أوقفته وطلبت منه أن يبيعني خاتماً مزركشاً، اعتذر الرجل في لباقة، أخبرني بأنه عاد ليأخذ بعض المال من الخزينة، وسيعود إلى بيته الآن.

تحت وابل من الإلحاح وافق الرجل، وأعاد فتح الدكان وأشعل

الإنارة، باعني خاتماً جميلاً مرصعاً بالجواهر، كان متوسط الثمن، ولم يكن أصلياً، لكنه يصلح هدية، دفعت المبلغ ثم خرجت.

كنت محظوظاً عندما توقفت الحافلة أمامي مباشرة، ولم أكلف نفسي كثيراً بالتحرك نحو الأمام والصعود، تكفل الناس المزدحمون خلفي بذلك، اندفعوا كضباع جائعة نحو الداخل.

جلست في الكرسي القريب من الشباك كالعادة، وهذه المرة أحكمت نظري جيداً، لن تفوتني قراءة الكتابات على الحوائط، لكن ما إن خرجنا من السوق، حتى رأيت الجدران جميعها تحمل ذات الدعوة للموكب؛ موكب استعادة الثورة في الثلاثين من يونيو القادم، كلها كتابات جديدة كتبت بعد دخولي إلى السوق مباشرة، اتكأت بظهري على الكرسي وتنفست الصُعداءَ.

في الأيام الماضية عجزت عن النوم بصورة طبيعية تماماً، صور الدماء أحالت أحلامي إلى جحيم، أستيقظ لأنظر في ظلام الغرفة فلا أرى إلا المزيد من صور الدم، ثم أرى وجوه أصحابها؛ بعضهم أعرفه وبعضهم أراه أوَّل مرة، كأنني أنا الذي قتلتهم أو شاركت في حرمانهم الحياةَ، وأسأل نفسي في حَيرة؛ إن كنت أنا أشعر بهذا القدر من المسئولية، فكيف بالذي قتلهم بالفعل، هل يجد النُعاس إلى عينه سبيلاً؟

عندما قصصت ذلك على أمجد، ضحك بصوت ممطوط وساخر وقال:

- إنهم ينامون وكأنهم أموات، يحتضنون أولادَهم مثلما تفعل

القطط، إنهم يقتلون لأنهم ليسوا مثلك وأنت لست مثلهم، الذي يقف حاجزاً بينكم هو الضمير الحي، عند موت ضميرك لا يهم من قتلت وكم قتلت، صدقني.

قلت ضاحكاً:

- ربما كان يجب أن أحصل على السلطة بدلاً منهم.

أجابني:

- إني أظنّ أن ضميرك حي، لأنك لم تحصل على السلطة بعد.

في بعض الليالي يزورني حاتم في شكله الناضج، الذي عجزت عن لقائه به، بدلاً من الطفل الذي عرفته طوال حياتي، حدث ذلك بالخصوص، بعد أن قررت تركَ البحث عنه، كأنه يلومني فيظهر أمامي في هيئة الشاب الحالم.

أراه في كثير من الأحيان من دون أن يراني، كأنني أشاهد فيلماً سينمائيّاً، خاصة عندما أنام نهاراً أو يغافلني النوم وأنا متكئٌ على الحائط، أو جالس على الكرسي أمام التلفزيون، أراه يحمل مع مجموعة من الأشخاص الذين لا أتبين ملامحهم أبداً؛ صُندوقاً ثقيلاً، يضعونه على مكان مرتفع، ثم يجتمعون ليناقشوا أمراً ما، ولا يلبثون حتى يعودوا إلى حمله من جديد، ووضعه في مكان مرتفع آخر.

عندما أستيقظ أجد رأسي قد اصطدم بالحائط، أو مال نحو الخلف، قال أمجد إن هذا الحلم ربما يكون إشارة لأمر ما، لكنه لا يعلمه، فسألته متعجباً:

- لماذا أخبرك بمثل هذه الأشياء؟

هالة لها أيضاً نصيب من تلك الأحلام، مرَّ الوقت سريعاً، من آخر لقاء، فكان عقلي يجمعني بها في فضائه الرحب.

هذه الليلة راودني الحلم الغريب مجدداً، ويبدو أنه لن يخرج من رأسي قريباً، رأيت الجميع في حلم واحد، كنا في ساحة الاعتصام أمام النفق مباشرة، تحتنا بحر من الدم القاني، نخوض فيه كأننا نمشي على أرض مرتوية بماء المطر.

على يميني هالة وعلى يساري حاتم، وهناك في الأعلى مجموعة من الصبية يحملون حجارة ضخمة يطرقون على الحديد، كان الوقت ليلاً والجو بارداً بعض الشيء.

بعد لحظات توقف الطرق فدققت النظر إلى النفق، حطَّ طائر غريب على حديدة بارزة أعلى النفق، فأخذوا يراقبونه في فزع، كان الطائر في حجم القطة أو أكبر قليلاً، ريشه رمادي كثيف وله منقار حاد وطويل، شعرت بذعر شديد، مع أنني كنت بعيداً جداً من الإصابة بأي أذىً، فتراجعت قليلاً، لم تتراجع هالة وحاتم معي، فعدت وأمسكت هالة من يدها وسحبتها نحو الخلف.

عندما مددت يدي نحو حاتم لأجره، نفذت من الجهة الأخرى، كأنه كان دخاناً، بعدها استيقظت مباشرة، ولم أحكِ الحلم لأمجد بالتأكيد.

نهضت باكراً حتى قبل أن تتسرب أشعة الشمس بفتحات الشباك الصغيرة، جلست على حافَة السرير مدة، جمعت فيها شتات نفسي، وبددت خلالها نُعاس الليل، أخرجت الهاتف من تحت المِخدَّة ونظرت إلى الساعة، كان أمامي الكثير من الوقت لكني أتحرق إلى الخروج.

نهضت واتممت كل تجهيزاتي المطلوبة، وعندما استيقظ أمجد تفاجا بي وانا اتاهب للخروج، سألني مندهشاً:

- إلى أين؟

أجبته في خبث أنني ذاهب لأقابل هالة، ثم أخرجت الخاتم من داخل جيبي ورفعته عالياً فتلألأت قطعه الزجاجية تحت ضوء المصباح الكسل.

خرجت عند الثامنة تقريباً، مررت من أمام الفرن، كان صف الزّبُن أطول من آخر مرة رأيته فيها، بدأت الأزمات تتفاقم أكثر مما يجب. بعضهم لا يجد خبزاً وبعضهم لا يجد وقوداً لسيارته، لكن لن أشغل رأسي بأمور كهذه الآن، مسار الثورة يمضي نحو الأمام ومساري كذلك، لا داعي للتقاطع.

لم أخبر هالة بما أنوي فعله، أردتها أن تكون مفاجأة جميلة، وصلت محطة الرومي وجلست أمام أحد المحالّ المغلقة، في تلك الأثناء خرج بعض الصبية من الحي يحملون إطارات كثيرة عل أكتافهم وقوارير البنزين، يتضاحكون كأنهم ذاهبون في رحلة مدرسية.

شعرت ببعض القلق، إذ إن ما يمكن أن يحدث هنا؛ من شأنه أن يقلل من روعة اللحظة التي أبحث عنها، خاصة إن حاولت قوات الأمن فض هذا التجمع، وما طمأنني أن الصبية لم يكونوا بالعدد الذي يستدعي تدخل الأمن.

أخرجت هاتفي واتصلت بهالة، لكن ما لم يكن في الحسبان حدث؛ هاتفها مغلق، أو شبكة الاتصال تمارس عادتها اليوميَّة في التَّردي، أعدت الاتصال عدة مرات وفي كل مرة؛ يخبرني بأن الهاتف مغلق، أو أن الرَّقْم غير موجود في السجلات، أو انه لا يمكن الوصول إليه من دون إبداء أسباب.

بيت هالة ليس بعيداً من محطة الرومي، لكن ليس من اللائق أن أذهب إليها في البيت، أدخلت هاتفي إلى جيبي ثم قررت العودة من حيث أتيت، كان الدخان حولي يعبق الأجواء، وهتافات الصبية تعلوا وتخفت، أحسست بهم ألوفاً، تعجبت لرباطة جأشهم.

بالتأكيد اختفت سيارات الأجرة والمواصلات، ولا مناص سوى المشي حتى أصل إلى شارع فيه سيارات، وقبل أن أتحرك ظهرت أمامي سيارات عسكرية محملة بالجنود، كانوا أمامي مباشرة، نظرت خلفي فوجدت أن الصبية قد استخفوا واختبأوا بين الأزقة تاركين خلفهم إطارات مشتعلة.

نزل الجنود وجروا نحوي كمتهم رئيس فيما يحدث، لم يكن أمامي سوى الجري.

جريت حتى وصلت إلى الإطارات ثم قفزت فوقها مثل رياضي ماهر، واصلت الجري من دون أن ألتفت خلفي نصفَ ساعة متواصلة، توقفت عند شجرة ظليلة، جلست تحتها وجسدي يكاد يتهشم كأنه زجاج.

تلفتُّ حولي لأتأكد أنني غير مطارد، بالفعل لم يكن هناك أحد، كنت الوحيد في ذلك الشارع تحت الشجرة الظليلة، كنت ألهث دقائق محاولاً السيطرة على صدري الذي ينتفخ أحياناً كبالون.

لمحت زيراً بالجهة المقابلة للشارع، ذهبت إليه وشربت ثم غسلت رأسي ورقبتي وأقدامي المعفرة بالتراب، أغمضت عيني للحظات، تحسست خلالها الخاتم في جيبي، تنفست الصُعداءَ عندما شعرت به بين أصابعي.

وقفت وسط الشارع أتأمل البيوت والأشجار وتراب الأرض، سألت نفسي عِدَّة مرات: كيف سأعود إلى بيتي الآن، ولم تمر سوى لحظات قبل أن أدرك أن هذا شارع بيتي بالفعل.

طائرٌ غَريب

في الصباح استيقظت متأخراً، نمت بعمق بعد يوم مرهق، أخرجت الهاتف من تحت المِخدَّة لأعرف الساعة، فوجدت مكالمة فائتة من أم حاتم، ذلك أمر أثار قلقي، فأم حاتم عندما تتصل، فهي تلح في اتصالها حتى أجيب، ولم يكن هناك سوى مكالمة واحدة، لماذا لم تكرر الاتصالات مرة أخرى.

أعدت الاتصال بها بقلب قلق ومزاج متعكر، وعندما انتهت مدة الانتظار بلا إجابة، زاد قلقي، لم أشرب الشاي، ولم أتحدث إلى أحد، ارتديت ملابسي ثم خرجت.

طرقت باب أم حاتم عدة مرات لكن بلا إجابة، إنها المرة الأولى -منذ أن عرفت أم حاتم- التي أضطر فيها لأن أطرق الباب عدة مرات، حتى تصبح أصابعي ترتجف وتتألم.

تلفتُّ حولي عَلّي أجد من أساله من الجيران لكن بلا فائدة، كان الشارع خالياً تماماً، وكأن الجميع تحالفوا ليثيروا زوبعة القلق داخلي، تسلقت الحائط وقفزت إلى داخل البيت ثم دخلت إلى الصالة الكبيرة فدهمني ظلام كثيف.

كانت الكهرباء مقطوعة، مع أنه لم يكن يوماً للقطع، فخمنت أنها لم تدفع الفاتورة منذ مدة، ناديتها باسمها عدة مرات لكن لم تأتني إجابة.

فتحت الشبابيك فاتضحت الرؤية أمامي قليلاً، بدا لي البيت خالياً من الحياة تماماً، فكرت في العودة من حيث أتيت، إذ يبدو أنها قد خرجت إلى مكان ما؛ أرادت أن تخبرني عنه، لكني لم أستيقظ على وقع رنين الهاتف.

شرعت في الانصراف، لكني رأيت غرفة نومها مفتوحة، وهو ما لم ألاحظه في المرات السابقة، توجهت إلى الغرفة لأرى، فوجدتها هناك ملقاة على الأرض، تتنفس في صعوبة بالغة، يخرج زفيرها معطوباً.

شعرت ببرودة في أطرافي، وسرت قُشعريرة في جسدي، فقدت يدايَ قدرتهما فلم أستطع حملها ووضعها على السرير، حدثتها بصوت مرتفع:

- هل أنت بخير يا أم حاتم؟

نظرت نحوي في تعب شديد، وابتسمت في وجهي، ثم مدت يدها ووضعتها على وجنتي قبل أن تهز رأسها بالإيجاب، أمسكت يدها ثم قلت:

- ماذا حدث لك؟

قبل أن تجيبني، فقدت وعيها وسقطت يدها من بين يدي.

أخرجت هاتفي ثم اتصلت بأمجد، طلبت منه أن يأتيني على وجه

السرعة، وعلى الفور طلبت سيارة إسعاف، لم تكن سيارة حكومية، بل سيارة عادية خصصها صاحبها لنقل الحالات الطارئة، كنت قد احتفظت برقمه منذ أيام الاعتصام أمام القيادة العامة.

نقلتها إلى مستشفى أمدرمان فلم تكن سيارة الإسعاف قادرة على التَّحرك أبعد من ذلك، كل الجسور الرئيسة مغلة، وبعض الطرق كذلك.

وكما توقعت كانت غرفة الطوارئ ممتلئة عن آخرها، بمصابي المظاهرات وبعض الحالات الطارئة، التي لم تفلح في الوصول إلى المستشفيات الأخرى، وغرفة الإنعاش لم يكن فيها موطئ قدم.

أحضرنا قطعة قماش كبيرة، وفرشناها على الأرض داخل الصالة، أرقدنا عليها أم حاتم وأوصلناها إلى جهاز أوكسجين، عثرنا عليه بعد عناء.

لم يكن الحال مطمئناً، أم حاتم تصارع الموت، ولا يكاد الهواء ينفذ إلى صدرها، تستفيق من حين لآخر، تتمتم بكلمات لا أفهمها، ثم تعود إلى غيبوبتها مرة أخرى.

سألني الطبيب إن كانت قد سقطت من قبل، أو إن كانت تعاني من أي مرض آخر، اكتفيت برفع كتفي في حَيرة، فأم حاتم لم تكن تطلعني على الكثير عن صحتها، لم يخطر ببالي قط أن أسألها، ولست أدري إن كان أحد من أقاربها يتابع حالتها، ولم يتسن لي أن أسألها عنهم.

ما حدث الآن، لم أضع له حساباً، يبدو أن مرضها ضاع وسط هذه الفوضى من الأحداث المتلاحقة، لقد فضلت أم حاتم أن تسكت وتبحث عن ابنها في هدوء.

قاس الطبيب بعضَ العلامات الحيوية في جسدها، طلب أن تُجرى لها بعض الفحوص والصور للقلب، لم يكن ذلك سهلاً، فأغلب الأجهزة اللازمة لم تكن متوفرة في المستشفى، كنا نحملها على عربة الإسعاف، ثم نطوف بها في المعامل القريبة حتى نجد ما نريد.

بعد أن أنجزنا المطلوب؛ ركب الطبيب المحاليل الوريدية على يدها بعد عناء بحث عن الوريد، ثم راح ينظر إلى الصور وقد بدا على وجهه القلق وقال:

- أم حاتم تعاني نوبة قلبية، علينا أن نجد لها غرفة عناية مكثفة، هنا ليس لدينا أسِرَّة فارغة، أنصحُ لكم بالبحث عن مستشفى آخر، وحبذا لو كان خاصاً.

أين يمكن أن أبحث؟ لا أملك معرفة جيدة بالمستشفيات، في لحظة أحسست أن كل ما يحدث هنا، يفوق قدراتي وخبراتي في الحياة، هذا صفع قوي على خد طريٍّ.

استعنت بسائق سيارة الإسعاف، فوافق من غير أن يأخذ مالاً، خرجنا بالسيارة مسرعين للبحث عن مستشفى خاص.

دام البحث ثلاث ساعات كاملة، كل المستشفيات ممتلئة عن آخرها.

المستشفى الأخير الذي عثرنا عليه، أخبرني محاسبه بأن عليَّ أن أضع مبلغ مئة ألف في الحساب، قبل أن تبدأ أم حاتم العلاجَ لديهم، شعرت بالدوار وعجزت عن الكلام.

في حياتي لم أمسك مالاً بهذا القدر في يدي، من أين سآتي به؟

هل أعود لأخبر أهل الحي فيدلوني على أقاربها؛ أم عليَّ خنق هذا المحاسب الذي يطلب مبلغاً لن يكون في معيتي أو معية أم حاتم..؟

ازدادت ضربات قلبي، وبات الوقوف صعباً بالنسبة إلي، فاتكأت على الحائط، ثم تدريجياً هبطت على الأرض وسط حَيرة الحاضرين والمحاسب.

في تلك اللحظة رنَّ هاتفي، رفعته إلى أذني فجاءني صوت أمجد حزيناً:

- لقد ماتت أم حاتم.

دفنتها ويداي ترتجفان.. ما دمتَ مؤمناً أن الحياةَ عادلة، ستعاني ما يشاء الله لك، ثم ستجد الإنصاف أخيراً، لكن ما عشته مع أم حاتم، جعلني أتخلى عن تلك الأفكار.. ظلَّت زمناً طويلاً تنتظر تلك اللحظة التي تزول فيها مخاوفها، وتجاب فيها تساؤلاتها، وتحتضن ابنها بين يديها، لكن ذلك لم يحدث.

عندما خرجت من المقبرة صرخت بأعلى صوت حتى نظر الناس نحوي:

- أين أنت يا حاتم.. أين أنت أيها الوغد؟ إن كنت حياً فعليك اللعنة إلى الأبد.

عندما عدت إلى البيت بعد انتهاء العزاء، كنت أحس بألم شديد في جسدي، ظننته ألماً سيمنعني النوم لكني نمت كقتيل عانق العدم لتوه، ولم أستيقظ إلا وضوء الشمس يدهمني عبر النافذة المفتوحة.

كانت أمي القلقة، تجلس أمامي على كرسي خشبي وتراقبني، سألتها منذ متى وهي على هذه الحال فأجابتني:

- منذ الليل.

لم يكن من عادتي أن أنام كل تلك المدة، فطمأنتها أنني عندما نمت نسيت كل شيء، حتى أنني نسيت أن أحلم بالكوابيس، فقط كنت أسبح في ظلام دامس.

سكان حينا يتجاهلون كل حدث من شأنه أن يوقظ فيهم هِمَّة، حتى الأزمات الحياتيَّة التي تلم بالحي، لا يلقون لها بالاً، حتى إن أحالت حياتهم إلى جحيم وفوضى.

يقول أمجد دائماً أنهم برجوازيون، لكن من واقع معرفتي بهم، لا أظنُّ ذلك، فقط إنها محض مصادفة؛ أن يجتمع كل هؤلاء العدَميّين في حي واحد. أحياناً تنقطع المياه لأسبوع كامل ولا أحد يحرك ساكناً، فقط يكتفون بجلب الماء من مناطق قريبة على ظهور سياراتهم.

تمتد صفوف الخبز أمتاراً طويلة، وتلتف في النهاية لأن بناية اعترضتها ولا أحد يهتم أيضاً، فقط تجدهم يثرثرون عن أمور لا شأن لهم بها.

أنا لست ببعيد عن هذه العدمية المقيتة، عندي قدرة رهيبة على تحمل الأزمات وتقبلها، ثم مع الزمن أتأقلم معها وأنزعج عندما تزول، لذلك لم أكن أتذمر كثيراً قبل الثورة، ازدادت حاجتي إلى التغيير بعد الوعي الذي اكتسبته مؤخراً، والأحداث المريرة التي شاهدتها أو سمعت بها أو عايشتها، فأحسست ببعض المسئولية تجاه الناس والبلد، ووجدت المعنى الذي يبحث عنه الجميع ويجِدّون خلفه.

لم يتفاعل أهل الحي مع دعوات الثلاثين من يونيو مع ما تمثله

للثورة. ومع انقطاع شبكة الإنترنت أصبحوا -كأهل الكهوف- منعزلين عما يدور حولهم؛ يعيشون أزماتهم في صمت، والآن أنا أخالفهم في كل شيء.

ظللت أنتظر ذلك الموكب بفارغ الصبر، يدي على قلبي في أغلب الوقت، فتارة تأتي دقاتُه عنيفة وتارة مخنوقة، وفي الوقت ذاتِه كنت أتمنى ألا يسقط شهداء جدد، لقد اكتفيت حقاً من الحزن، تمزق قلبي وأنا أرى الشباب تتهاوى أجسادهم على الأرض.

في الليلة التي سبقت الموكب، اتصل بي حسام بصورة فاجأتني، أخبرني أن أحد رفقائه في المعتقل أخبره بأنه رأى حاتم في أحد المواكب الصغيرة، التي تروج لموكب الغد بحي العباسية وسط أمدرمان.

سألته في تلهف:

- وهل يعرف مكانه الآن؟

أخبرني بكل أسف أن صديقه رآه من شباك الحافلة التي مرت من أمام الموكب، قال إنه متأكّد أنه هو، يعرفه كما يعرف نفسه، فقد كان معه في زنزانة واحدة حين كانوا في كسلا.

أغلقت الهاتف وأنا لا أعلم هل أفرح أم أحزن أم أغضب، أم أصنع مزيجاً مراً من كل تلك المشاعر المباغتة!

رقدت على سريري، وأنا أعد الدقائق في انتظار الموكب، في السابق لم أكن أفضل الذَّهاب بعيداً عن محيط الحي في الموكب، لكني سأخرج غداً وأذهب بعيداً، ليزيد الثوار بشخص، وأبحث عن حاتم.

في الصباح خرجتُ وأمجد مستعدين، كانت الساعة قد أشارت بعقاربها إلى الثامنة تماماً، الشوارع خالية من السيارات والمارة، مجموعات متفرقة من الشباب يتجمعون إلى نقاط متفرقة في انتظار الساعة الواحدة كما حُدد للموكب أن يقوم، بعض الأشخاص يدخلون إلى محل البقالة الوحيد الذي لم يغلق أبوابه.

التقاطع البعيد جهة الغرب كان خالياً من المتاريس على غير العادة، والتقاطع المقابل له شرقاً؛ جهة شارع النيل، لم تمر به سوى عربة بوكس يقودها بائع الحليب، الذي غاب سريعاً داخل الحي.

لم يكن من سبيل إلى تكسير الوقت سوى الجلوس عند بائعة الشاي الإثيوبية، والتي رحلت عن مكانها القديم، وصنعت خيمة ضخمة عند طَرَفِ الشارع.

دخلنا إلى الخيمة فوجدنا كثيراً من الزُّبُن متباينى الشكل والغرض، جلسنا على كرسيين عند الزاوية بعد أن طلبنا قهوتنا.

كل الحاضرين لا يتحدثون عن شيء؛ سوى الموكب الذي اقترب موعده. قال رجل يرتدي بدلة؛ يضع إحدى رجليه على الأخرى وفي جيبه قلم أحمر:

- هذه البلاد لن تنجو إلا إذا حكمها العسكريون، نحن نعيش في خضم فوضى تحتاج إلى حزم، أما هؤلاء الشباب الحالمون بالدولة المدنية، فلن يجدوا سوى الموت.

نال حديث الرجل استحسان بعض الحاضرين، الذين يظنون أننا عاجزون عن استحداث نموذج مدني يليق بنا، ويرون أن لا حل

لأزمتنا سوى حاكم دكتاتور وعادل في الوقت ذاته.

قال أحد الشباب وهو يشرب قهوته على مهل في انتظار الموكب:

- رأيك هذا -يا أستاذ- يمثل رأي أغلبية كبار السن، تبحثون عن الاستقرار أكثر من بحثكم عن التغيير اللازم، لا يهمكم من يحكم، لقد عاصرتم ثورة 85 ضد النميري، وربما أصبتم بالإحباط بعد أن صودرت تلك الثورة؛ كما صودرت قبلها ثورة 64 ضد عبود، لكن لماذا تظنون أن الخطأ ليس خطأكم، لماذا عدتم إلى بيوتكم في 85 من دون أن تحقق ثورتكم كامل أهدافها؟ سلمتموها فقط لأول شخص مد يده نحوها، وعدتم إلى بيوتكم لتناموا وبكيتم عليها عندما ضاعت ثم أخذتم تصفقون للعساكر. لا تقيسوا الشباب اليوم بكم، نحن نمتلك خطة واعية.

مع اقتراب الساعة الواحدة، بدأ الناس يتسربون من الخيمة، دفعنا حساب القهوة ثم خرجنا إلى الشارع الذي تغير تماماً، أصبح يحمل ملامحَ جديدة وألواناً جديدة.

سرعان ما بدأت بعض التجمعات الصغيرة، تخرج من الأحياء الصغيرة إلى الشارع الرئيس. أحسست بحرارة الحماسة التي اجتاحت أمجد، في حين أخذت أنا أتفرس وجوه الثوار وهم يشرعون في الهتاف، كنت أبحث بينهم عن حاتم ولا أجده.

عند الواحدة ظهراً، تعالت الزغاريد، ثم خرج الجميع لينتظموا في موكب كبير، لم يحتج الأمر سوى بضع دقائق حتى أصبح الموكب كجسد واحد يهدر في قوة.

فكرت وأنا أنظر إلى تلك الوجوه عن حتمية سقوط الشهداء اليوم، لكن كل هؤلاء لا يأبهون بالأمر، يهتفون كأنهم ذاهبون في رحلة إلى الشاطئ، حدوث الموت أمر لا يمكن تفاديه اليوم.

تقدم الموكب حسب مساره المرسوم بعناية، كان ككرة الثلج؛ تكبر وتكبر كلما تحركنا نحو الأمام، ولم يكن أمام السيارات العسكرية التي ظهرت فُجَاءَةً أمامنا في أحد الشوارع سوى النظر بعين الانبهار، كانوا صامتين يراقبون.

في تلك اللحظة أدركت كم نحن أقوياء، نسير في طريق لا رجعة فيه، إذ إن التَّراجع إلى الخلف يعني الدوس على دماء الشهداء، الذين هتفوا طوال تلك الأيام ضد النظام السابق، ثم هتفوا أمام القيادة العامة ضد كل من حاول أن يسرق الثورة من بين أيديهم، لذلك لا سبيل سوى المضي قدماً، هكذا ببساطة يسير الأمر نحو نهايته، ولا مجال لخيانة الدم حتى لا يكون مهدراً.

في هذا اليوم، أكاد أجزم أن أحداً لم يبقَ في بيته، حتى أنصار الرئيس المخلوع سيخرجون عاجلاً أم آجلاً من مخابئهم، ليروا كيف نسفت دولتهم المتوهمة إلى الأبد، وليضحكوا على خيبتهم، إذ إن هؤلاء الشبابَ الذين يهتفون بالآلاف، ولدوا في عهد الرئيس المخلوع، سمعوا خطاباته وشاهدوه يرقص على المنصات.

مع وصولنا إلى مبنى البرلمان تغير كل شيء، بدأ إطلاق النار عشوائياً فتراجعنا، رأيت عِدَّة أشخاص يسقطون أرضاً، ولا أدري إن كانوا جرحى فقط أم موتى، رحنا نجري عائدين، في حين تقدم بعضهم إلى الأمام غير آبهين للموت الذي يلوح أمامهم، يصرخون في غضب وصدورهم مكشوفة.

تذكرت ما حدث في ميدان الاعتصام، حاولت أن أردهم إلى الخلف، لكن بلا فائدة، فأخذت أصرخ:

- لا تذهبوا إلى الرصاص، عودوا إلى الخلف.

شعرت بضيق شديد وحزن، لقد كانوا يتساقطون تحت وابل الرصاص، ولو لم أنسحب لكنت في عداد الأموات.

ظللنا نمشي ساعات عائدين إلى البيت، شعرت أن المسافة قد تضاعفت إلى عشرة أضعاف وأصبح من المستحيل مشيها بالأقدام، لكن لا سيارات.

وصلنا إلى البيت عند دخول الليل منهكين بعد رحلة جبنا فيها طرقات لم نرها من قبل، هتفنا حتى بُحَّ صوتنا، هتفنا في وجه السيارات العسكرية المصطفة على جنبات الطريق من دون خوف، أحسسنا وقتها أننا أقوى منهم، مع أننا لم نملك سوى الحناجر.

ذلك الموكب خلف مئات الجرحى، وعشرة قتلى سقطوا بعد مغيب الشمس، بعد أن تخفى القتلة وراء أستار الظلام، أطلقوا رصاصاتهم الغدارة ثم لاذوا بالفرار، تمنيت أن لا يسقط أحد، لكن كان للقدر ترتيبات أُخرى، المهم أن صوتنا وصل تماماً، وقرع تلك الآذان الغادرة.

من جديد وجدتني في موقف الحافلات السَّفرية، أودع أمجد بعد أن هدأت الأحوال، أراد العودة إلى القرية ليرى أمر حيواناته، ويعيد تجهيز أوراقه، ففي الأيام القادمة -مع وصفه الدائم لها بالمجهولة والخطرة- يأمل أن يجد وظيفة تعيده إلى الخرطوم مرة أخرى.

هذه المرة كانت هالة برفقتي، أردنا أن نتحرك بعيداً عن حيزنا

الضَّيق الذي ألفناه، طفنا بالشوارع التي باتت تسترد عافيتها بالتدريج، وتنسحب من تحت شجيراتها السيارات العسكرية المدججة بالسلاح.

مرَّت بنا الحافلة أسفل النفق قبالة جامعة الخرطوم، فتناهى إلى مسامعي صوت الطرق الذي ألفته أذناي وقتاً طويلاً، كما كان يحدث أيام الاعتصام بالضبط، مع تأكدي أن المِساحة العلوية للنفق فارغة تماماً.

أوقفت الحافلة ونزلنا بسرعة، صعدنا إلى التلة العالية من الجهة الشمالية وصولاً إلى أعلى النفق المدهون حديثاً، وقد أزيلت عنه كل آثار الثورة وصخبها الذي ميزه زمناً طويلاً.

وقفت أتأمل المنظر بعناية.. القيادة العامة للجيش على يساري تبدو طبيعية إلى حد بعيد، عساكر يدخلون وآخرون يخرجون في حركة دءوبة روتينية، وحركة المرور القادمة من جسر الحديد طبيعية للغاية، داعبت وجهي نسمات باردة قادمة من جهة النيل فنظرت نحوه وقد بدا طبيعياً ينساب منذ أن وُجِد هنا.

الحال هادئة، لكني ما أزال أسمع صوت الطرق داخل رأسي، قلت لهالة:

- هل تسمعين؟

ردت في حَيرة:

- غير أبواق السيارات وصوت المحركات؟

أجبتها موافقاً برأسي فقالت في ارتياب:

- لا، لا شيء آخر.

ظل الصوت يتردد في رأسي، تقدمت نحو السور الحديدي، ونظرت إلى المارة بأشكالهم المتباينة، شعرت وأنا أنظر إليهم أنهم جميعاً ذات الشخص، نسخ كثيرة من حاتم، حاتم يأتي وآخر يذهب، ومجموعة منه توقف سيارة أجرة أو تجري خلف الحافلة.

أصبت بالصداع، شببت على السور ورحت أصرخ:

- حاتم، أيها الوغد! لقد ماتت أمك. لقد تغير كل شيء، انتهت الثورة، أين أنت أيها اللعين؟

توقف كل الناس في الشارع عن الحركة، وراحوا ينظرون إليَّ في استغراب.

سحبتني هالة من يدي في هدوء، أعادتني إلى البيت وأنا في حالٍ يرثى لها، لم أستطع أن أفعل سوى الاستسلام للنوم والفرار بعيداً في الظلام.

نمت على أمل أن أنسى، لكني رأيت ذلك الحلم كأنه يقصد أن يدفعني نحو جنون التَّذكر، الطائر الغريب بريشه الرمادي الكثيف ومنقاره الطويل والحاد، كان يقف في ذات المكان؛ حديدة بارزة أعلى النفق، يوزع نظراته الفاحصة حوله في سرعةٍ فائقة كما المرَّة السابقة، نظر إلى المباني القريبة والشوارع والسيارات العابرة، نظر إلى المارة والباعة المتجولين، نظر أيضاً إلى العسكري الواقف أمام البوابة حاملاً بندقيته على كتفه، ناظراً أمامه في صرامة.

هذه المرة لم أكن أقف قبالة الطائر، بل أقف في الجهة الأخرى للشارع المار أمام النفق، حيث يقف صبية النفق، الذين أتذكر ملامحهم

جيِّداً، على قضبان السكة الحديدية التي تمر فوق النفق. لم يكن الطائر مذعوراً مع طرقهم العنيف على الحديد، ولم يرف بجناحيه ليطلق غباره الكريه.

أحسست يداي ترتعشان وقلبي ينبض بقوة، وهذه المرة هرولت مبتعداً.

جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول | الدورة 25 | 2021

الفائز الثالث في مجال الرواية

أيمن بيك

جمهورية السودان

- بكالوريوس الهندسة الكهربائية.
- حاصل على العديد من الجوائز الأدبية.

من أعماله المطبوعة:

- مجموعة قصصية (أين أشيائي).
- مجموعة قصصية (تداعيات وفاة حضرة الصول).

9 789948 826507